كتاب المستقبل
(2)

أستاذ الجامعة فى عالم نجيب محفوظ

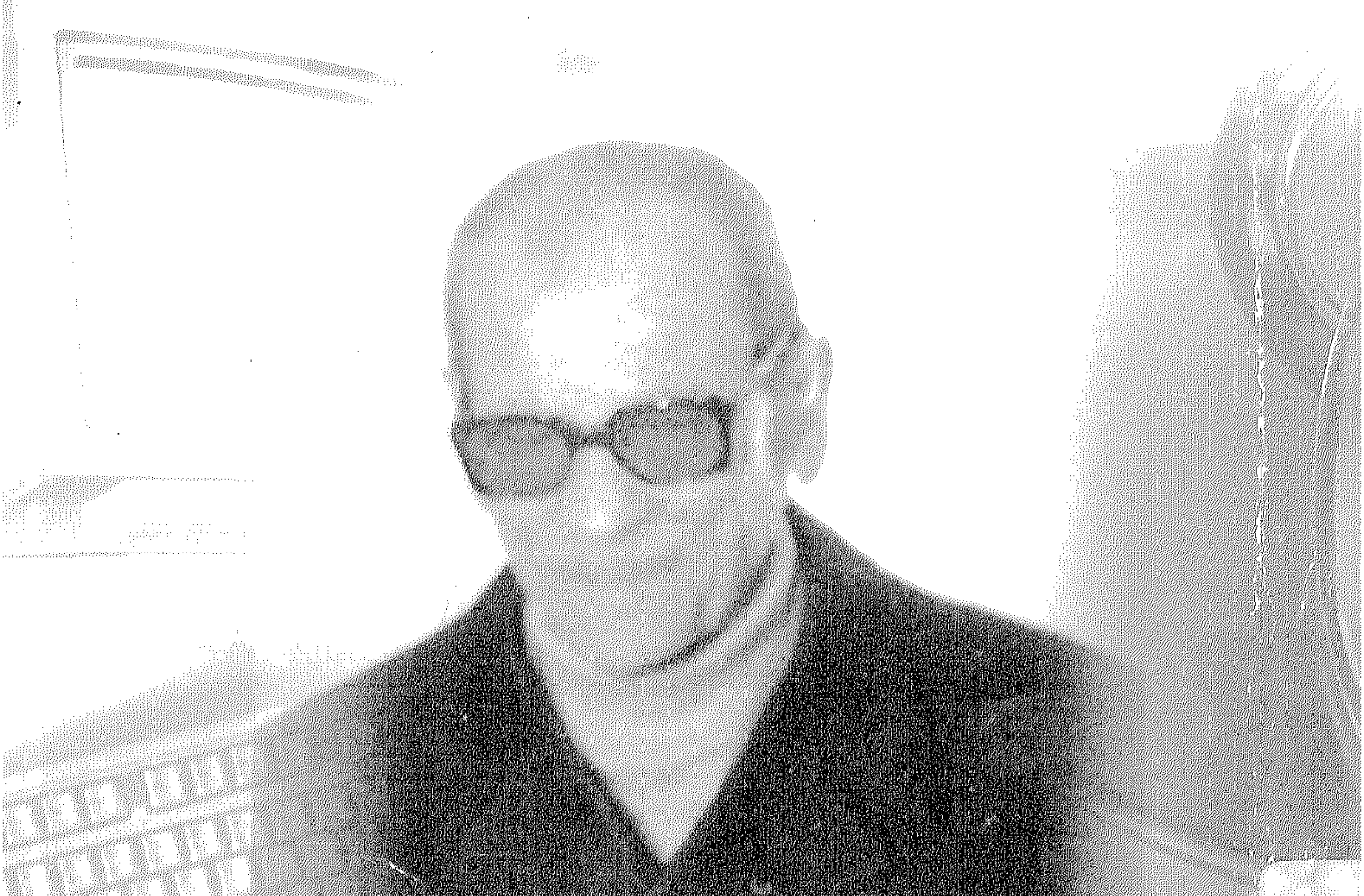

89

مصطفى بيومى

مركز دراسات المستقبل

دار الهدى للنشر والتوزيع

أستاذ الجامعة فى عالم نجيب محفوظ

"المرايا نموذجاً"

الكتاب: أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ
"المرايا نموذجاً"

المؤلف: مصطفى بيومي

الناشر: مركز دراسات المستقبل – جامعة المنيا
دار الهدى للنشر والتوزيع

رقم الإيداع: ٢٠٠١/٣١٢٢

الترقيم الدولي: 977-5822-40-8

كتاب المستقبل
2

رئيس مجلس الإدارة
د. ماهر مصطفى كامل

مدير المركز
د. محمد عاطف كشك

مدير التحرير
مصطفى بيومي

جميع الحقوق محفوظة للناشر

المنيا ـ 5 ميدان الساعة – ص ب 4 عمومي
ت 0123454568 – فاكس 086/346713

المراسلات
جامعة المنيا – مركز دراسات المستقبل
ت/فاكس 086/345394

دار القبس للطباعة وفصل الألوان
ت: ٣٦٤٠٨٢٥ـ ٣٦٨٥٦٢٨ـ ٥٢٤٣٣١٤

أستاذ الجامعة في عالم نجيب محفوظ

"المرايا نموذجاً"

مصطفى بيومى

مركز دراسات المستقبل - جامعة المنيا
دار الهدى للنشر والتوزيع

كتاب المستقبل

تهدف هذه السلسلة إلى:

- رفع مستوى الوعى بالقضايا والتحديات المستقبلية والنهوض بمستوى الحوار حولها لدى مختلف القوى الاجتماعية.
- استثارة الاهتمام المجتمعى الجاد بالمستقبل وقضاياه.
- الإسهام فى تكوين مكتبة علمية لدراسات المستقبل من خلال إبداعات علماء جامعة المنيا وأصدقاء المركز من المفكرين والعلماء المصريين.

إن هدف الدراسات المستقبلية ليس فقط معرفة احتمالات واتجاهات التغير والاستعداد لها، وإنما أيضا التأثير فيها فى الاتجاهات المطلوبة.

مقدمة

د. ماهر مصطفى كامل
رئيس جامعة المنيا

في سياق احتفاء جامعة المنيا بأسبوع شباب الجامعات الذى تستضيفه فى فبراير 2001، يقدم مركز دراسات وبحوث المستقبل هذا الكتيب عن "أستاذ الجامعة فى عالم نجيب محفوظ" من خلال رواية "المرايا" التى تبدى اهتماما كبيراً بشخصية الأستاذ الجامعى ودوره فى الحياة المصرية.

مكانة نجيب محفوظ معروفة ولا تحتاج إلى حديث طويل، وهو ابن من أبناء الجامعة المصرية حيث تخرج فى كلية الآداب بجامعة القاهرة "فؤاد الأول" سنة 1934، والذى لا شك فيه أن كاتباً فى مثل قيمته وقامته يستطيع أن يقدم شهادة مهمة عن التاريخ المصرى الذى تحتل فيه الجامعة مكاناً بالغ الأهمية.

ومن الكتيب الذى نقدم له يمكن استخلاص مجموعة من المفردات المهمة عن الجامعة وأساتذتها فى الواقع المصرى.

. أول الملامح المستخلصة أن الأغلبية العظمى لا ترى فى الجامعة إلا وسيلة للحصول على وظيفة، مهملة بذلك الدور العلمى والثقافى الذى لا ينبغى أن يختصر إلى مجرد أداة للعمل بمعزل عن العلم.

الملمح الثانى أن أستاذ الجامعة لا ينفصل عن المجتمع فى سلوكه

وممارساته، وقد لا يخلو الوسط الجامعى من المنحرفين الضالين، ولكنهم لا يؤثرون فى مجمل الصورة الإيجابية للجامعة كمنارة للعلم والتنوير.

وثمة ملمح ثالث يتجسد فى الدور الثقافى الذى يمارسه أساتذة الجامعة، فهم عنصر فعال فى تشكيل الثقافة القومية بما يضيفونه من مؤلفات وبحوث وما يقدمونه من أفكار ونظريات.

ولقد نجح مؤلف الكتاب، من خلال التمهيد والخاتمة والفصول السبعة التى تتكون منها دراسته، أن يستنبط شهادة كاتب العربية الأول نجيب محفوظ عن الجامعة المصرية منذ نشأتها إلى نهاية الستينيات. ولا شك أن تطوراً كبيراً قد طرأ على الجامعات فى العقود التالية، وهو ما لم يعبر عنه نجيب محفوظ بحكم الإطار الزمنى الذى يكتب عنه وفيه.

والمأمول أن يكون الكتاب الذى يقدمه مركز دراسات وبحوث المستقبل بجامعة المنيا، بمثابة التحية للمشاركين فى أسبوع شباب الجامعات وأن يكون – فى الوقت نفسه – تحية للروائى العالمى الكبير.

د. ماهر مصطفى كامل

مقدمة

د. محمد عاطف كشك

مدير مركز دراسات المستقبل

عندما كنت طالباً فى الجامعة فى أوائل الستينيات كنت أنظر الى أساتذتى باعتبارهم أنصاف آلهة أو قديسين وهبوا أنفسهم للعلم والتعليم، وعندما أصبحت أستاذاً بالجامعة تغيرت نظرتى إلى أستاذ الجامعة حيث كنت أقرب إلى رؤية أشياء لا يستطيع أن يراها الطالب فى أستاذه. رأيت أساتذة وهبوا أنفسهم للعلم والتعليم ورأيت أساتذة وهبوا أنفسهم للجهل والتجهيل وآخرين وهبوا أنفسهم للغش والتدليس، وفيما بين النقيضين شاهدت كل أنواع الطبائع والأخلاق.

وبجانب خبرتى الشخصية التى تطورت كما ذكرت، كنت أقرأ أحيانا بعض الأعمال الأدبية أو أشاهد بعض المسرحيات أو الأفلام السينمائية أو المسلسلات التليفزيونية التى تصور بعض أساتذة الجامعة، وفيما عدا قلة قليلة من هذه الأعمال، كانت صورة أستاذ الجامعة كما تعرضها الأعمال الأدبية أو الفنية صورة بالغة السطحية وأحياناً بالغة التشوه، كأن يعرض أستاذ الجامعة فى صورة رجل (أو امرأة) مهملاً فى حياته الشخصية وفى مظهره دائم النسيان والتوهان يرتدى معطفاً أبيض ونظارة سميكة يقف فى معمله أو ينكب على كتبه ومراجعه ولا يدرى شيئاً عما يدور حوله من أحداث.

وهذه الصورة السطحية أو المشوهة لأستاذ الجامعة فى الأعمال

الأدبية أو الفنية طالت أيضاً غيره من فئات المجتمع مثل القضاة أو المحامين أو الأطباء أو المهندسين، وحدثت بسببها أحياناً مشاحنات أو اعتراضات من بعض هذه الفئات على منتجى العمل الفنى أو الأدبى. لكننا فى هذا الصدد يجب أن ندرك أمرين: الأول أن العمل الأدبى أو الفنى غير مطالب بأن يعرض صورة مثالية لأى فرد من أفراد المجتمع، والثانى أن مثل هذه الصورة المثالية لا وجود لها في الواقع. فأستاذ الجامع أو القاضي أو المهندس لا يتم تكوينه في أنبوبة اختبار بمعزل عن المجتمع الذى يعيش فيه، وهو مثله مثل أى فرد آخر فى المجتمع نتاج التطور التاريخى والظروف السياسية - الاقتصادية - الاجتماعية - الثقافية السائدة.

والكتاب الذى بين أيدينا يقوم صورة الأستاذ الجامعى فى رواية من روايات الكاتب المصرى العالمى الفذ "نجيب محفوظ"، وربما تكون الصورة التى يقدمها غير كاملة أو غير معبرة من كل ما نتوقعه أو نعرفه عن أستاذ الجامعة، لكن أهميتها تنتج من عاملين:

الأول: أهمية ومكانة نجيب محفوظ وخاصة فى تعبيره الواعى والمستنير عن جوانب كثيرة من الواقع المصرى.

الثانى: المعرفة الموسوعية لمؤلف الكتاب الصديق مصطفى بيومى بالأدب المصرى المعاصر عامة وبعالم نجيب محفوظ بصفة خاصة.

وأرجو أن يكون مركز البحوث والدراسات المستقبلية بتقديمه لهذا الكتاب المهم مسهماً بقدر ما فى إزالة أى أوهام متعلقة بصورة أستاذ الجامعة وأن يقدم للقراء - والطلاب بصفة خاصة - صورة أقرب إلى الواقع لأستاذ الجامعة وما يمكن أن يكون له من دور فى تشكيل واقع ومستقبل مصر.

د. محمد عاطف كشك

إهـــداء ..

إلى أخى ..

الدكتور/ محمـــد مؤنـــس

وإلى الصديقين العالمين ..

الدكتور/ محمد عاطف كشك

الدكتور/ محيى الدين محسب

وإلى روح المرحوم ..

الدكتور/ علـــى البطـــل

....

القناديل المضيئة فى درب حياة معتمة

م.ب

تمهيد

يمثل التعليم الجامعى أهمية خاصة فى الواقع المصرى وفى عالم نجيب محفوظ الذى يعكس هذا الواقع ويعبر عنه ويتفاعل معه، ذلك أن الحصول على شهادة جامعية يعنى وجود فرصة لاحتلال مكانة اجتماعية متميزة من خلال الحصول على وظيفة ترتفع بصاحبها درجات فى السلم الاجتماعى الطبقى الذى يميز - بصرامة - بين حملة الشهادات العليا وغيرهم.

لا ينتمى كل الموظفين بطبيعة الحال إلى حملة المؤهلات العليا، فالكثيرون منهم لا يتمكنون من إكمال تعليمهم وتتفرق بهم السبل فى رحلة الحياة الوظيفية، والكثيرون - أيضا - لا يجدون مكانا فى عالم الوظيفة فيقنعون بالمهن والحرف البسيطة التى تتناسب مع تعليمهم المحدود.

الذين زاملوا كمال عبد الجواد فى مطلع حياته الدراسية لم يواصلـوا رحلة التعليم التى واصلها: منهم من توظف بالابتدائيــة أو الكفـاءة، ومنــهم من اضطر إلى مزاولة عمل من الأعمال البسيطة مثل صبى قــهوة بـين القصريـن وصبى الكواء البلدى بخان جعفر. "قصر-75"

والذين يتوقفون عن إتمام دراسـتهم ويقنعـون بالوظـائف الصغـيرة، يختلفون فى الدوافع التى ألجأتهم إلى العمل المبكـر، وتتبـاين حظوظـهم بعـد العمل.

عدم الاستعداد للتعليم وضعف القدرة على التلقى قـد يكـون السـبب فى التوقف دون ضغوط مادية أو أسرية أو خارجية.

كان كامل رؤبة لاظ - منذ البدء - متعثراً فى دراسـته، ولم يسـتطع بعد حصوله على البكالوريا بصعوبة أن يتحمل الدراسة فى كليـة الحقـوق. إن ما دفعه إلى التوقف عن الدراسة هو الاستعداد المحدود والعجز عن اسـتيعاب الدروس والخجل من المواجهـة. نجح جده فى الحصول له على وظيفة صغيرة، ولم يكـن التوظـف إجباريـا حتـى تتحطـم آمالـه فـى المسـتقبل: لم أكـن ممـن يشقيهم الطموح، وإذا كان لى منه شئ فيما مضى من أيام الأحلام، فقد قبر فى إدارة المخـازن بـوزارة الحربيـة حيـث تعـد عـلاوة نصـف جنيــه مـن الآمـال البعيدة. "السراب - 107"

وقد التحق عزت عبد الباقى - مثل كـامل رؤبــة - بكليــة الحقـوق، ولكنه خاب فى دراسته القانونية. لا الهمة وجد و لا الحمــاس، فـانقطع عـن الدراسة بعد عامين من الالتحاق بها. "عصر-68"

ثراء عزت ينفى أن يكون توقفه عـن التعليـم بسـبب الحاجـة. إنــها

الخيبة وافتقاد الهمة والحماس والعجز عن المواصلة. وهذه الأسباب بعينها هى التى جعلت سليمان بهجت يتوظف بشهادته الزراعية المتوسطة فى وزارة الزراعة. "الباقى- 35"

ما يجمع بين الثلاثة، كامل وعزت وسليمان، هو توقفهم عن مواصلة الدراسة لأسباب ذاتية تتعلق بفشلهم وعجزهم.

وثمة فريق أكبر يتوقف عن التعليم ويقنع بوظيفة لا تناسب طموحه ومواهبه واستعداده لأسباب مادية تتمثل فى العجز عن مواصلة الإنفاق على التعليم، و أسباب أسرية تتمثل فى حتمية إنفاقهم على أسرهم بعد وفاة العائل أو توقفه عن العمل.

لقد أحيل والد أحمد عاكف إلى للمعاش – وكان يشارف الأربعين – لإضاعته عهدة مصلحيه بإهماله، وتطاوله على المحققين الإداريين، فأُجبر الابن على قطع حياته الدراسية والالتحاق بوظيفة صغيرة لينفق على أسرته المحطمة ويربى أخويه الصغيرين اللذين مات أحدهما، وصار الثانى موظفاً ببنك مصر. "خان – 14"

كان التوقف عن الدراسة طعنة لطموحات وأحلام أحمد عاكف الذى تحول – بسبب توقفه عن الدراسة – إلى موظف فى الدرجة الثامنة بمحفوظات وزارة الأشغال لا يملك إلا أن يشكو حظه العاثر ويكرر أقوالاً مثل: " لو أتممت دراستى – وكان نجاحى مضمونا – لكنت الآن كيتا وكيتا" !.

ولم يكن يفوته تتبع خطى المتفوقين من أقران المدرسة الذين واصلوا دراستهم، وليس نادراً أن يرفع رأسه عن جريدة بين يديه، ويقول بإنكار:

"أتعرفون فلانا الذين يقولون عنـه ويعيـدون؟.. زاملنـى عـهد الدراسـة فصلاً فصلاً، وكان تلميذا خاملا لا يطمع أن يدركنى يوما ما. "نفسه – 15 "

لو أنه أكمل تعليمه الجامعى لكان له شأن "وظيفى" آخـر، ولأنـه لم يفعل فقد امتلأ مرارة وحقدا، وانقلب معاديـا للجـامعيين مسـفها للشـهادات التى حصلوا عليها !.

أحمد مخلص فى حبه لشقيقه رشدى، ولكـن هـذا الحـب لا يحـول دون السـخرية مـن الشـقيق العـابث الـذى حصـل علـى بكـالوريوس التجـارة بمعجزة، وهى "الشهادة" التى تفضل الحكومة حامليها – كما يقول أحمـد – على أمثاله. "نفسه – 104 "

لم يكن رشدى "جامعياً" بالمعنى الدقيق، فـهو لا يعبـأ بالموضوعـات العلمية وما يصاحبها من اصطلاحات، كما أنه مـن المؤمنـين بعبقريـة أخيـه، ولذلـك رأى فيـه أحمـد رمـزا حيـاً لإيمـان الجامعـة المصريـة بعبقريتـه العصامية!. " نفسه – 109 "

ويختلف الأمر بالنسبة للمحامى أحمد راشد، فهو "جـامعى" بحـق ويمثل "غريماً" لعاكف الذى يتورط معه فى مناقشة خاسرة عن قيمـة وأهميـة الشهادات الجامعية. فإذ يفخر عاكف بالمعارف التى يتوهم أنـه حصلـها مـن القراءات المتنوعة المشوشة التى يدمنها، مستكبراً ومستنكراً أن تكـون ثقافتـه هذه بهدف الحصول على "شهادة" ما:

– أية شهادة تستوجب هذه الدراسة الطويلة الشاملة؟! مـا الشـهادة إلا لعبة يستبق إليها الشبان، أما دراستى فلا غاية لها إلا العلـم الحـق، وربما مهدت بها يوما إلى التأليف المنتج.

يتساءل أحمد راشد :

- ما معنى أن الشهادة لعبة؟

فقال أحمد كاظما حنقه:

- الشهادة ليست دليل العلم!

- أهى دليل الجهل؟

فأخذ غيظه يفور حتى أجهده أن يكتمه، ثم استدرك قائلاً:

- أعنى أن الشهادة هى الدليل على أن شاباً حفظ بعض المواد بضع سنين والعلم الحق شئ غير هذا البتة!

فابتسم أحمد راشد ابتسامة غامضة وأمسك عن الجدل، وكان يعطف على رأى محدثه فى الشهادات. بل إنه لم يغب عنه الحدة التى يسوق بها رأيه مما جعله يميل إلى فرض احتمال وجود أسباب أخرى لذلك الرأى غير التى أعلنها. "نفسه -52 "

أحمد بلا شهادة جامعية، وغياب الشهادة يدفعه إلى تسفيه من يحملها! . وإذا كان أخوه رشدى يمثل نموذجا للجامعيين الذين لا يعبأون بالعلم والثقافة ولا يمثلون تحدياً لأحمد، فإن المحامى اليسارى أحمد راشد يطرح - بعلمه وثقافته - تحدياً يدفع الموظف المنسى الحانق إلى مناقشة عصبية بلا منطق. الشهادة الجامعية ليست "لعبة" بطبيعة الحال، وإذا لم تكن "دليل علم" فهى ليست بالضرورة "دليل جهل". المحامى الجامعى ليس متعصباً لأهمية الشهادة، وهو - لأسباب مختلفة تماماً - يتفق مع جوهر أفكار عاكف، ولكنه يدرك أن حنق

محاوره على الجامعة وشهاداتها ينبع من منطق مختلف.

ولو أن أحمد عاكف واصل دراسته الجامعية لكان له شأن "وظيفـى" آخر، ولكان له - بالتبعية - رأى مغاير فى الشهادات وأصحابها.

وإذا كانت إحالة عاكف أفندى المبكرة إلى المعاش قد حالت بين الابن أحمد ومواصلة دراسته الجامعية، فإن موت على أفندى كامل قد عرض أسرته لصير مظلم دفع ابنه حسين إلى التوظف بالبكالوريا. رغم تقتير الأم واحتراف الأخت للخياطة، كان توظف حسين ضرورياً لمواجهة الحياة القاسية.

ولأن طموح حسين لا يتناسب مع واقعه الوظيفى، فإنه يعـى مأساة توقفه عن التعليم ويرصد تأثير ذلك التوقف علـى مستقبله مقارنـة بمستقبل أخيه حسنين الذى سيواصل الدراسة: إنه من الغد موظف من موظفـى الدولـة وبعـد أعـوام قصيرة أو طويلـة يصبـح حسـنين موظفـاً أيضـاً مـن درجـة أعلى. "بداية-203 "

ويدفعـه هـذا الوعـى إلى تـأمل الفـوارق الطاغيـة التـى تمـيز بـين الموظفين. "نفسه - 306"

وجانب كبير من هذه الفوارق" الطاغية" يعود إلى المؤهل الدراسى!.

وبعد موت أمه، وهى عائله الوحيد، يضطر عثمان بيومى إلى العمـل بالبكالوريا رغم تفوقه."حضرة - 14"

لقد اضطر أحمد عاكف وحسنين كامل وعثمان بيومى إلى التوقف عن الدراسة إجبارياً، وشبح التوقف عن الدراسة يواجه محجوب عبد الدايم بعد مرض أبيه وتأكد استحالة عودته إلى العمل. الأب المريض يخاطب ابنه قائلاً:

ربما منحتنى الشركة مكافأة صغيرة، ستفقد بلا ريب قبل مضى أشهر قلائل، بل المؤكد أنه لن يبقى منها شئ بعد ثلاثة أو أربعة أشهر على الأكثر، ولكن لن أعدم نصيراً يجد لك وظيفة تنهض بنا جميعاً. "القاهرة – 38"

رغبة الأب فى توظيف ابنه لـ " تنهض بنا جميعاً " تأتى قبل شهور قليلة من امتحان الليسانس، ويكون المخرج الوحيد أمام محجوب لمواجهة هذا التهديد الكبير لمستقبله أن يعيش الشهور المتبقية حتى الامتحان وظهور النتيجة بجنيه واحد فى الشهر: جنيه واحد! أو ما يساوى إيجار حجرة بدار الطلبة؟ رباه! بالأمس ضاقت به الدنيا ونفقته ثلاثة جنيهات، فماذا هو صانع غدا بجنيه واحد؟!. "نفسه–40"

واختار محجوب أن يواصل دراسته ويقبل التحدى، فهو يعلم جيداً قيمة الشهادة التى تستحق التضحية والصبر.

وفضلاً عن ضعف الاستعداد للتحصيل العلمى والعوامل المادية السيئة، فإن هناك من يتوقف عن الدراسة لمزيج من ضغوط الحياة والظروف الذاتية. الفقر ليس الدافع الوحيد فى هذه الحالة، ولكنه الدافع الرئيس.

يتوقف حمدون عجرمة عن التعليم بعد المرحلة الثانوية، ويقرر أن يتوظف ليخفف عن خالته من ناحية ويهب بقية يومه للمسرح من ناحية أخرى." عصر–56"

ويطوف أنيس زكى بكليات الطب والعلوم والحقوق فيمضى بعلومها دون شهاداتها كأى رجل لا تهمه المظاهر كما يقول رجب القاضى ساخراً ."ثرثرة –31"

ولكن أنيس زكى يقدم السبب الحقيقى لعدم إكمال التعليم، وهو مزيج من عدم الاستعداد ومعاكسة الظروف المادية: لم أوفق للنجاح ثم انقطعت عنى الموارد، فتوظفت فى وزارة الصحة بوساطة طبيب من أساتذتى السابقين."نفسه-63"

وتتدخل السياسة أحياناً لإفساد وقطع رحلة التعليم.

يصف نجيب محفوظ زميله فى الدراسة ناجى مرقص بأنه "أنبغ تلميذ فى جيلنا"، ولكن السياسة تتدخل لتجبر الطالب النابغ على العمل كموظف صغير فى وزارة الحربية.ذهب أبو ناجى لتهنئة الزعيم مصطفى النحاس بالبراءة التى حصل عليها فى قضية سيف الدين، وظهرت صورته لسوء الحظ ضمن صور المهنئين فقررت الوزارة فصله. وشق على الرجل الرفت وكان فقيراً كما كان مريضا بالقلب فأصيب بالفالج وقضى نحبه." المرايا-380"

وبعد موت الأب، يضطر التلميذ النابغ إلى التوقف عن التعليم والرضا بوظيفة لا تناسب نبوغه.

وإذا كانت السياسة سبباً غير مباشر بالنسبة لناجى مرقص، فإنها السبب الوحيد لتوقف حامد على عن إكمال دراسته الجامعية وشغله لوظيفة بسيطة. تسأله عليات التى أعجبت بحديثه الذكى المثقف:

- من أى كلية ؟

فقال بلا ارتياح:

- الثانوية العامة فقط!.

فارتبكت قليلاً وقالت:

- الحق انك مثقف جداً.

- هذا شئ آخر.

وقرأ فى عينيها تساؤلات تداريها بأدبها، فقال:

- عقب حصولى على الثانوية العامة أعتقلت!

فتساءلت باهتمام:

- لم.

فقال ضاحكاً:

- بتهمة الشيوعية!." الحب تحت - 164"

اللافت للنظر فى الحوار السابق أن الحديث الذكى المثقف لا ينبغى أن يصدر - من وجهة نظر عليات - إلا من حاصل على مؤهل جامعى، أما حامد نفسه فيفصل بين الشهادة والثقافة. والفارق كبير بين أحمد عاكف فى "خان الخليلي" وحامد على فى "الحب تحت المطر"، فالأول حاقد موتور متعالم والثانى مثقف حقيقى بلا ادعاء، وكلاهما بلا شهادة جامعية!.

وهكذا تتعدد الأسباب التى تحول بين الكثيرين وإكمال تعليمهم العالى الذى يؤهلهم لوظائف أفضل من التى يشغلونها بمؤهلاتهم المتوسطة. ولكن: هل ينتهى الأمر عند هذا الحد؟

ألا يمكن استكمال التعليم الجامعى أثناء العمل؟! بعض الموظفين يحاولون ويفشلون، وبعضهم يحاولون وينجحون.

أحمد عاكف من الذين حاولوا وفشلوا: انتسب لكلية الحقوق، ولكنه رسب في مادتين وخشى أن يعاود التجربة فتتعرض عبقريته لامتحان خطير يكشف عن حقيقتها! . "خان–18"

الناجحون أكثر.

كان شرارة النحال عاملا للتليفون ومن حملة الابتدائية، وأثناء عمله المرهق انقلب من جديد تلميذ مجتهداً وحصل من "منازلهم" على شهادات الكفاءة فالبكالوريا وأخيراً ليسانس الحقوق. "المرايا–178"

وعدلى المؤذن توظف بالابتدائية، ثم درس وهو موظف حتى بلغ ما بلغ من العلم. "نفسه–240"

يواصل عثمان بيومى دراسته أثناء العمل حتى حصل على ليسانس الحقوق، ويقدم نجيب محفوظ الأسلوب الوظيفى المتبع لمعاملة الحاصلين على مؤهل جامعى أثناء عملهم من خلال الرسالة التى يخطر بها عثمان المدير العام بحصوله على الليسانس:

حضرة صاحب المعالى المدير العام

أتشرف بإبلاغ سعادتكم بأننى حصلت على ليسانس الحقوق هذا العام – من منازلهم – استزادة من العلم واستكمالا للوسائل الضرورية للموظف، مستلهماً الهمة من عبقرية سعادتكم، فى ظل مولانا الملك المعظم حفظه الله وأدام ملكه.

رجاء التكرم بالعلم والأمر بحفظ الشهادة المرفقة بملف خدمتى. "حضرة–46"

معايشة نجيب محفوظ الواقعية لعالم الموظفين هى التى مكنته من الإحاطة الشاملة بخصائص هذا العالم الذى لا يعرفه إلا من يعايشه عن قرب. إنه عالم "طبقى"، ولكنه طبقاته هى الشهادة والدرجات العلمية!.

الحاصلون على المؤهلات العليا يتربعون على قمة الهرم الوظيفى، وغير الحاصلين على مؤهلات يسقطون فى السفح، أما أصحاب المؤهلات المتوسطة فيمثلون الطبقة الوسطى. بعض هؤلاء ينجح فى الصعود، والغالبية تبقى متأرجحة يهددها شبح الهبوط وتؤرقها أحلام الصعود.

وفى إطار العلاقة بين التعليم الجامعى والعمل، تتميز المرأة بخصوصية يكشف عنها عالم نجيب محفوظ. مشكلة المرأة تكمن فى نظرة المجتمع السلبية، خلال مرحلة تاريخية بعينها، لتعليمها وعملها معاً!.

وعلى الرغم من أن ثورة 1919 قد غيرت كثيراً من المفاهيم والقيم المسيطرة على المجتمع المصرى، فإن قضية تعليم وعمل المرأة من القضايا التى استمرت مطروحة للمناقشة دون حسم، وظل العداء لتعليم المرأة والريبة فى النساء العاملات مستمراً.

تتحدث حرم حمديس بك عن فتيات الجامعة فتقول، وكأنها تدافع عن ابنتها تحية، إن الجامعة تمهيد للوظيفة، وإنها لذلك اختارت لتحية سبيلاً آخر." القاهرة-139"

اللافت للنظر هنا هو الحديث بيقين عن مهمة الجامعة كتمهيد للوظيفة، فإذا غابت الرغبة فى العمل تبخرت - بالتبعية - أهمية الجامعة وجدواها!.

بنات الأسر الطيبة لا يعملن! هذا ما يردده ويمارسه ياسين أحمد عبد الجواد، فإذ يقول أحد زملائه:

– ستأخذ ابنتى البكالوريا هذا العام، وسألحقها بمعهد التربية فأرتـاح من ناحيتها، لا مصروفات ولا تعب قلب فى البحث عـن وظيفـة بعـد التخرج.

يرد ياسين:

– نحـن لا نلحـق بناتنـا بالثـانوى، ولمـاذا؟. إنــها لـن تتوظـــف. "السكرية –196"

وبـالمنطق نفسـه تـرد أمينـــة علـى ابنـــة ابنتــها، نعيمـــة بنـــت عائشة، التـى تحتـج علـى حرمانـها مـن التعليـم رغـم أن زميلاتـها يواصلـن التعلم:

– لست فى حاجة إلى الوظيفة!. "نفسه –10"

ياسـين وأمينـة، وحـرم حمديـس بـــك قبلـــهما، لا يمـــيزون بـــين الجامعة والوظيفـــة، فكـأن " العلـم" الـذى يلقـن فـى الجامعـة مجـرد وسـيلة للحصول على "العمل" دون تفكير فى وجود أدوار ووظائف أخـــرى للجامعـة. ولذلـك تنتفـى الحاجـة إلى التعليـم الجـامعى بانتفـاء الاحتيـاج المـادى إلى العمل!.

ولكن رفض عمل المرأة لا يعنى بالضرورة رفض تعليمها، فالكثيرون لا يجدون حرجا فـى أن تتعلـم ولا تعمـل. مـدام حمديـس بـك تعلـم ابنتـها، وياسين عبد الجواد يعلم ابنته، وهذا التعليم ينتهى عند مرحلـة معينـة دون

أن يفضى إلى العمل. وعبد الوهاب إسماعيل لا يجد بأسا فى أن تتعلم المرأة لحساب البيت لا الوظيفة. "المرايا-262"

أما الفتاة الأرستقراطية علوية صبرى فإنها تعترف بأنها لا تتعلم من أجل الوظيفة: لم أذهب إلى الجامعة لأتوظف كسائر الزميلات. "السكرية -223"

وفى المقابل لا يعنى العمل نهاية التعليم عند فتيات كثيرات. توظفت أحلام بعد تخرجها فى التجارة الثانوية: ولكننى مستمرة فى التعليم. " الطريق -71"

هل يقتصر دور الجامعة على تخريج الموظفين؟ عالم نجيب محفوظ، الذى يبدى اهتماماً هائلاً بالموظفين وقضاياهم وهمومهم، يبدو أقل احتفالاً بالجامعة التى تخرج فيها عدد غير قليل من هؤلاء الموظفين. فى عديد فى أعمال نجيب محفوظ طلبة جامعيون ينتمون إلى طبقات اجتماعية مختلفة، ويتبنون أفكاراً سياسية متباينة، ولكن من الصعوبة بمكان أن نلمس دوراً لأساتذة الجامعة فى تشكيل شخصياتهم والتأثير على آرائهم وأفكارهم. وقد نجد فى "بين القصرين" رصداً أميناً للدور الذى لعبه طلبة المدارس العليا فى ثورة 1919[1]، وقد نجد فى "القاهرة الجديدة" و "السكرية" رصدا مماثلا للحياة الجامعية وما يعتمل فيها من صراعات تعبر عن الواقع السياسى والاجتماعى والثقافى خارج أسوار الجامعة، ولكن الذى يلفت النظر بحق أن

(1) كان الشهيد أحمد فهمى عبد الجواد طالبا فى كلية الحقوق، ومن خلاله تقدم" بين القصرين" عرضاً توثيقيا فنيا بالغ الأهمية لأحداث ثورة 1919 و الدور الذى قام به طلبة المدارس العليا"الكليات الجامعية" فى إشعالها.

شخصية أستاذ الجامعة المصرى[2] لا تحظى بوجود مؤثر فى روايات وقصص نجيب محفوظ، وهو الذى كان من الممكن أن يكون أستاذ جامعياً لولا تعثر إجراءات سفره فى بعثة خارجية[3].

لا يحظى أساتذة الجامعة بما يحظى به الموظفون، وثمة مناقشة مهمة تدور بين "الموظف" محجوب عبد الدايم وطالب البعثة الذى سيعود أستاذاً جامعياً مأمون رضوان: وتحدثا عن البعثة والوظائف الإدارية والفنية ومهنة التدريس فى الجامعة والمدارس الثانوية، وانتقد مأمون النظام الجائر الذى يحرم المتخصصين الاشتغال بفنهم الذى تخصصوا فيه، ولم يرتح محجوب إلى التهوين من شأن الوظائف الإدارية، وقال لصاحبه: إنها تنفرد بمجد ليس لمهنة التعليم منه نصيب. وكان مأمون يفهم المجد على نحو آخر... " القاهرة-150"

(2) تجدر الإشارة هنا إلى وجود أساتذة أجانب، من الإنجليز والفرنسيين تحديداً، فى الجامعة المصرية خلال العشرينيات والثلاثينيات والأربعينيات، والوجود الأكبر لهؤلاء الأساتذة عند نجيب محفوظ نجده فى "القاهرة الجديدة" و"السكرية". وعلى سبيل المثال فإن الأستاذ الفرنسى للفلسفة فى رواية "القاهرة الجديدة" هو الذى رشح مأمون رضوان لبعثة السوربون، ووصى بتعيين على طه فى المكتبة ليتهيأ له جو حسن لتحضير رسالته."القاهرة-79"
وفى "السكرية" يرتبط أحمد شوكت بعلاقة وثيقة مع أستاذ علم الاجتماع الإنجليزى مستر فورستر، وهو الذى ينصح تلميذه بالتقدم للماجستير بعد حصوله على الليسانس."السكرية-218"

(3) كان نجيب محفوظ مرشحاً لبعثة دراسية إلى فرنسا، وتدخلت السراى لاستبعاده ظناً أنه قبطى، والعداء معروف بين السراى والأقباط لأنهم عمد حزب الوفد. التفاصيل فى العدد الخاص الذى أصدرته مجلة "الهلال" المصرية عن نجيب محفوظ، عدد فبراير 197،ص97.

"المجد" الذى يفكر فيه محجوب مادى صرف، وليس أدل على ذلك من استدعائه لمأمون رضوان بعد ترقيته إلى الدرجة الرابعة مديراً لمكتب الوزير بمرتب 25 جنيهاً في الشهر: مأمون رضوان نفسه لن يزيد مرتبه بعد عودته من البعثة - بعد ثمانية أعوام - على مرتبه هذا!. "نفسه-177"

لا يفكر محجوب فى كيفية وصوله إلى المنصب الكبير خلال شهور قليلة، ولا يفكر فى وظيفة مأمون الجامعية وجلالها، فغاية ما يشغله هو المرتب الذى يحصل عليه كل منهما!.

لا تنعقد البطولة للأستاذ الجامعي فى أى من روايات نجيب محفوظ، بل لا توجد فى عالمه كله شخصية أستاذ جامعى تلعب دوراً مهما ومؤثراً.

وهنا تظهر أهمية "المرايا".

"المرايا" سيرة ذاتية روائية يقدم فيها نجيب محفوظ صوراً فنية عن خمسة وخمسين شخصية، وقد نشرت الرواية - لأول مرة - مسلسلة فى مجلة " الإذاعة والتلفزيون " فى الفترة من أول مايو سنة 1971 إلى السادس عشر من أكتوبر فى العام نفسه، وظهرت طبعتها الأولى سنة 1972.

و"المرايا" تجربة روائية جديرة بالاهتمام، وقد انقسم النقاد حولها إلى درجة التناقض.

ناقد كبير مثل الدكتور صبرى حافظ يذهب إلى أنها تقدم صورة بالغة القتامة والكآبة لعدد كبير من كتاب مصر ومثقفيها، وصورة متضخمة لذات تحاول أن تعلى من شأنها عن طريق الزراية بالآخرين والنيل منهم وتشويههم.

ويحتد الدكتور صبرى إلى الدرجة التى يرى فيها أن نجيب محفوظ برجوازى صغير حاقد مغرور تصور له أوهامه أن كل النساء ساقطات، وكل الرجال زائفون، وأنه هو الوحيد الناصع اليد الطاهر الذيل، الناجح فى غزواته النسائية والثقافية على السواء[4].

أما الناقد الكبير رجاء النقاش، وهو الذى نشر الرواية مسلسلة فى فترة رئاسته لتحرير مجلة " الإذاعة والتلفزيون "، فيرى أن "المرايا" عمل أدبى جميل وصادق، يروى فيها نجيب جانباً من تجاربه الخاصة مع شخصيات عرفها وشخصيات أخرى تخيلها، ونجيب ينقد فيها بعض الأوضاع والنماذج الإنسانية الشائعة فى المجتمع[5].

غضب صبرى حافظ مرده إلى أسباب سياسية مؤقتة، وحماس رجاء النقاش موضوعى أدبى. وحقيقة الأمر أن الشخصيات التى يعرض لها نجيب محفوظ تمثل خليطاً يعبر عن تنوع الحياة الإنسانية الصاخبة، فنجد أساتذة الجامعة وضباط الشرطة والجيش والعاطلين بلا عمل والطلبة والأطباء والموظفين والكتاب والصحفيين والتجار والفنانين والمحامين وتجار المخدرات والسماسرة والقوادين وسعاة المصالح الحكومية وربات البيوت والسماكين. وعلى خلاف الأعمال السابقة واللاحقة لنجيب محفوظ، تنفرد "المرايا" باهتمام ملحوظ بشخصية أستاذ الجامعة. سبعه من شخوص الرواية أساتذة فى الجامعة او كانوا أستاذة فيها قبل انتقالهم إلى وظائف أخرى، وهذا العدد

(4) د. صبرى حافظ: تزييف الوعى وتشويه التاريخ، مجلة الأقلام، بغداد، تموز 1984. ص ص55-62.

(5) رجاء النقاش: فى حب نجيب محفوظ، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1995. ص246.

يمثل نسبة تقترب من 13٪ من أجمالى شخصيات الرواية. والنسبة مرتفعة بمقاييس الواقع من ناحية ومن حيث اهتمام روايات نجيب محفوظ الأخرى من ناحية ثانية.

تتوقف دراستنا هذه أمام صورة أستاذ الجامعة كما تقدمها رواية "المرايا"، ونعرض لهذه الصورة من خلال سبعة فصول تتناول شخصيات:

- إبراهيم عقل "كلية الآداب"
- زهير كامل "كلية الآداب"
- سرور عبد الباقى "كلية الطب "
- عزمى شاكر "كلية الآداب"
- كامل رمزى "كلية التجارة"
- ماهر عبد الكريم "كلية الآداب"
- محمود درويش "كلية الآداب"

وليست صدفة أن تحظى كلية الآداب بالنصيب الأوفر، فهى الكلية التى تخرج فيها الروائى الكبير، وهى الكلية التى تسهم بنصيب عظيم فى حياتنا الأدبية والثقافية.

ومن الضرورى أن نشير إلى أن اهتمام الدراسة ينصب فى المقام الأول على الإطار الإنسانى العام لأستاذ الجامعة، ذلك انه ليس إلا واحدا من أبناء المجتمع: يخضع لقوانينه ويتأثر بتحولاته ويتفاعل مع متغيراته.

وإذا كان الإطار الزمنى لرواية "المرايا" ينتهى فى أواخر الستينيات و أوائل السبعينيات، فإن كل تغيير طرأ على المجتمع والجامعة

معاً فـى الفـترات التاليــة بمثابــة الامتــداد لا الانقطــاع للــدور السياســى والاجتماعى والثقافى الذى يلعبه أساتذة الجامعات المصرية فى تشكيل الواقع والتشكل به.

لا يزعـم البـاحث أن الدراسـة تحيـط بكـل جوانـب صـورة الحيـــاة الجامعية فى عالم نجيب محفوظ، ولكنـها تطمع فى الإحاطــة الشـاملة بكافـة أركان صورة الأسـتاذ الجـامعى كمـا تقدمـها "المرايـا"، وهـى الروايـة الأكـثر اهتماماً بالجامعة وأساتذتها فى كل ما كتب نجيب محفوظ.

مصطفى بيومى

المنيا – ديسمبر2000

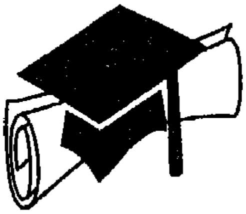

الفصل الأول

إبراهيم عقل

تبدأ معرفة الراوى بالدكتور إبراهيم عقل - قبل أن يراه - من خلال مقال نشره الأستاذ سالم جبر وأشار فيه إلى الدكتور باعتباره عقلا فذا بشر فى وقت ما بثورة فكرية فى حياتنا الثقافية لولا وشاية حقيرة أجهضته قبل أن يقف على قدميه، رددها شخص لا خلاق له زاعما بأنه طعن فى الإسلام ضمن رسالة الدكتوراه التى قدمها للسوربون.

وبسبب هذه التهمة تعرض الدكتور إبراهيم لهجوم عنيف من بعض الصحف والمجلات، وطالب المهاجمون بفصله من الجامعة. ولأن الدكتور ليس ذا طبيعة مقاتلة، ولأنه فى حاجة إلى وظيفته، فقد تحول إلى حالة دفاعية لإخماد الفتنة.

أزمة الأستاذ الجامعى إبراهيم عقل لا تكمن فى علمه أو فى عقله، ولكنها فى المناخ الاجتماعى الذى لا يتسع لحرية الفكر وفى الشخصية المهتزة التى لا تستطيع المقاومة وتؤثر السلامة والانسحاب والانحناء الدائم

للعاصفة. ولعل أفضل ما يجسد هذه المعادلة ما يقوله – أيضاً – سالم جـبر عـن الدكتور إبراهيم كضحية لمجتمع فاسد، وإن لم يغفر له انهزاميته.

والدكتور ماهر عبد الكريم، الذى يحظى باحترام من الـراوى يصل إلى درجة تقترب من التقديـس، يقدم شـهادة إيجابيـة عـن الدكتـور عقـل – زميله فى السوربون – ويقول عنه:

– إنه عقلية فذة، وكان يبهرنا بذكائه ونحن فى السوربون.

– وهو الوحيد فى مصر الذى يتمتع بعقل فلسفى، بالنظرة الشاملة للأشياء.

– لم يُخلق كاتباً، ولكنه محدث موهوب، نوع من سقراط،خص أصدقاءه الحميمين بزبدة أفكاره. وطرح أيسر ما عنده على الناس.

عقلية فذة وذكاء خارق وعقل فلسفى ونظرة شاملة، ولكـن مـا يفسد ذلك كله هو الانعزال عن الناس والتقوقع على الذات والعجز عن التواصل. إنه – كما يقول الراوى مقترباً من الموضوعية – أستاذ بلا تلاميذ ولا مريدين.

كـانت الأزمـة التـى تعـرض لهـا الدكتـور عقـل فـى بدايـة حياتـه الجامعية فوق قدرته على التحمل، وعلى الرغـم مـن تراجعـه ومهادنتـه فـإن "سمعته" بقيت عند الكثيرين سيئة ومريبة تـأثراً بالاتـهام القديـم. بعـد سـنوات من العاصفة يتعرف الراوى – فى مطلع حياته الوظيفية – على واحد من غلاة المحافظين هو طنطاوى إسماعيل، وسرعان ما يسأل الوافد الجديد من الجامعة:

– أكنت من تلاميذ الدكتور إبراهيم عقل؟

ويجيب الراوى باعتزاز:

– نعم ومن تلاميذ الدكتور ماهر عبد الكريم أيضاً.

فيقول طنطاوى بصوت ذى رنة نحاسية:

– ماهر عبد الكريم رجل عظيم أما إبراهيم عقل فوغد كافر من ذيول المبشرين!

ويرد الراوى وهو لا يجد حافزا للدفاع عن الرجل:

– يخيل إلىّ أنه اعتزل الفكر ولم يبق من أستاذيته إلا شبح ...

فقال بحدة:

– لم يبق منه إلا مرتزق من المرتزقة!.

المؤكد إن طنطاوى إسماعيل – الذى لا يعرف اللغة الفرنسية – لم يطلع على رسالة الدكتوراه التى اتُّهم إبراهيم عقل بسببها، ولكنه – من وحى الحملة العاتية القديمة – لا يجد حرجا فى وصفه بأنه وغد كافر من ذيول المبشرين!.

كيف انتهى الحال بالعقلية الفذة التى بشرت بثورة فكرية فى الحياة الثقافية المصرية، وأى مصير آل إليه من كان يبهر زملاءه فى السوربون بذكائه ونظرته الشاملة؟!.

لما التحق الراوى بالجامعة عام 1930 كان إبراهيم عقل أستاذاً مساعدا بها، عديم الاهتمام بالحياة الفكرية، ومحاضراته تخلو من الدسامة وأقرب إلى التوجيهات العامة.

وفى سياق آخر يعترف الراوى بأنه لا يكن لأستاذه احتراماً يذكر: لعزوفه عن التأليف، ولعدم إخلاصه فى عمله. وما أعجبنى فيه إلا منظره وخفة روحه وسخريته المموهة بالتفلسف.

ويتحول الموقف السلبى اللامبالى إلى عداء كامل لا هوادة فيه عندما يمارس الدكتور إبراهيم فعلا سياسيا يوصف بالانتهازية من تلاميذه الوفديين، وفي مقدمتهم الراوى الذى لا يَخفى انتماؤه الوفدى[1]

تولى الدكتور إبراهيم عقل منصباً جامعياً كبيراً، ولكنه اغتال فى سبيله جميع مثله العليا. ففى ظل عداء شعبى عارم للملك فؤاد، نشر الدكتور مقالة فى الأهرام يدعو فيها للولاء لصاحب العرش وينوه بأيادى أسرته على نهضة البلاد وبخاصة محمد على و إسماعيل.

هل كان هذا المقال هو "الثمن" الذى دفعه الدكتور ليرتقى به إلى المنصب الكبير الخطير غير المحدد؟!. رؤية نجيب محفوظ الوفدية تلعب دوراً مهما فى الرأى العنيف المتشدد، والرؤية نفسها تلون تقديم الموقف الطلابى من إبراهيم عقل وتخيل مشاعره الداخلية بعد الموقف السياسى الموصوف بالانتهازية: وظل الدكتور يخطر بيننا، متظاهراً بالثبات والشجاعة، يطالعنا بنظرات متحدية تخفى فى أعماقها إحساسا بالهزيمة والذنب. وكنا نلقاه بالاحترام اللائق بمركزه على حين نضمر له الاستهانة والسخرية....

وكان لخفة روحه ومناوراته البهلوانية خليقاً بأن يتبدى لنا مهرجاً أو دجالا لا شريرا أو سفاكا للدماء أو عدوا حقيقياً للشعب...

"يتظاهر" بالثبات والشجاعة، و"يخفى" إحساساً بالهزيمة والذنب. الاحترام الظاهرى هو ما يلقاه من تلاميذه، ولكن أعماقهم تنطوى على

(1) عن وفدية نجيب محفوظ راجع دراستنا: "الرؤية الوفدية فى أدب نجيب محفوظ"، وقد نشرت مسلسلة فى العدد الأسبوعى من جريدة" الوفد" خلال شهرى نوفمبر وديسمبر 1991.

الاستهانة والسخرية. إنه لا يرقى إلى مرتبة الأعداء الحقيقيين، وغاية ما يصل إليه أن يكون مهرجاً أو دجالاً!.

لم يكن إبراهيم عقل قبل موقفه هذا ممن يحظون باحترام طلابه، ولكن السلوك الانتهازى الذى اتخذه حول العداء من دائرة السلبية النابعة من تقدير وتقييم عمله الجامعى كأستاذ إلى السلبية المرتبطة بخلل فى الموقف الوطنى.

فى اليوم الأخير للدراسة يجتمع الدكتور عقل بطلبة الليسانس فى القسم الذى يرأسه، ويصارحهم بكل ما يعتمل فى أعماقه. كأنما يدافع الرجل عن نفسه عندما يقول:

- المسألة أننى وجدت أناسا يخطبون وأناسا يعملون فاخترت الانضمام إلى العاملين. وكلنا فى النهاية مصريون.

وإذ يعترض الطالب اسحق بقطر على رأى أستاذه قائلاً:

- إن من يخطب مطالباً بالاستقلال والدستور خير ممن يبنى الكورنيش ويسفك الدماء[2]...

(2) إسماعيل صدقى هو المقصود بمن "يبنى الكورنيش ويسفك الدماء"، وعندما يتقابل الراوى مع الدكتور عقل فى الإسكندرية ويعود الدكتور إلى الحديث عن بناء الكورنيش الذى سيغير وجه الإسكندرية، يعقب الراوى فى سخط وغضب:
- ليس بالكورنيش وحده يحيا الإنسان.
إسماعيل صدقى، الذى تحالف الدكتور عقل مع حكومته، هو الأكثر تعبيرا عن الشر والعداء للشعب فى عالم نجيب محفوظ. لمزيد من التفاصيل راجع دراستنا" معجم أعلام نجيب محفوظ.. دراسة تحليلية"، دار الأحمدى، ط2،1998. ص ص 48-54.

لا يعلق الدكتور إلا بقوله:

- ليس كالسياسة مفسدة للعقل...

وعندما ينتقل الدكتور إبراهيم إلى الحديث مع طلابـه عـن المستقبل الذى يبدو لهم متجهما، فإنـه يـبرهن علـى أنـه لا يعيـش فـى الواقـع الـذى يكتوون بنيرانه. فهو يبشرهم بطريق الحقيقة والقيم، ويدعوهم إلى التخفيـف من غلواء الطموح الدنيوى والرضا من الدنيا بما تجود به، أما الشوق للحقيقـة فلا ترسموا له حداً!.

وكأنما يتفنن الدكتور فى تعذيب طلابه عندما يقول لهم:

- إن الجلوس تحت شجرة فى يوم صاف خير من امتلاك عزبة.

وخلال تعاقب هذه النصائح الفلسفية المطلقة، يفكر الطلبة فى أستاذهم على نحو مختلف. وبعد مغادرتهم للكلية يستبقون إلى نعته بكل قبيح:

- الوغد.
- المهرج.
- الدجال.

ليست المسألة فى الموقف السياسى الذى يهمل الأغلبيـة الشعبية وينحاز إلى الأقلية المتسلطة فحسب، ولكنـها أيضاً فـى الرؤيـة الاجتماعيـة الانعزالية القاصرة. أى معنى للتبشير بالحقيقة والقيم فـى ظـل واقـع ضـاغط متجهم كئيب لا يتيح للروح أن تزدهر وترضـى؟!. وقـد يكـون إبراهيـم عقـل متوافقا مع نفسه وصادقا فيما يدعو إليه ويبشر بـه، ولكنـه لا يـرى تفـاعلات الحياة ومعاناة الأحياء الذين يكابدون وينفسون عن غضبهم الدفين بالاستباق إلى نعته بكل قبيح من الصفات!.

وفى هذا الإطار يمكننا أن نفهم السر فى انحياز الراوى إلى زميله عجلان ثابت، الذى فُصل من الجامعة بعد اتهامه بسرقة طربوش، ويراه أفضل من الدكتور إبراهيم عقل.

إذا كان عجلان لصا مدفوعا إلى السرقة بالفقر والاحتياج، فإن الدكتور إبراهيم - على نحو ما - سارق لأحلام تلاميذه دون مبرر يشفع له!.

ومن المنطقى أن يعتمد الدكتور عقل فى عمله الإدارى بالجامعة على الموظفين "المشبوهين" والمكروهين فى الأوساط الطلابية مثل عدلى المؤذن: كانت علاقته بالدكتور إبراهيم عقل وثيقة، ولما ولى الدكتور منصبه الخطير نتيجة لتقربه من السراى اعتمد فى إدارته على عدلى المؤذن. وهو الذى قدمه إلى أحد الوزراء قبيل الحرب العظمى الثانية فنقله الوزير إلى وزارته مفسحاً لطموحه مجالا جديداً أحفل بالفرص من إدارة الجامعة.

وعدلى هذا مكروه كإبليس، وعند موته يتخلى الموظفون عن التقاليد المرعية مظهرين الشماتة والفرح، وكانت جنازته فقيرة لم يشارك فيها من ذوى الشأن إلا إبراهيم عقل نفسه بعد أن ترك الجامعة وتفرغ للدروشة!.

ومن المنطقى أيضا أن يظهر الدكتور عقل - الإدارى - كأداة إرهاب وتخويف للطلاب، فإذا يحتك بعضهم بزميلهم محمود درويش متوهمين أنه عميل لأجهزة الأمن، يستدعيهم إبراهيم عقل إلى مكتبه ويهددهم - إذا عادوا - بإبلاغ أمرهم إلى الجهات المختصة.

ومن المنطقى كذلك أن يبدو الدكتور عقل منحازاً إلى القيم التقليدية والصرامة الأخلاقية كما يتجلى فى موقفه من الطالبة الفاتنة سعاد وهبى التى أثارت بجمالها وخفتها وتحررها مشاعر الطلاب واهتمامهم: وسرت عدوى

اهتمامهم إلى الدكتور إبراهيم عقل الذى يفرض بقامته المديدة رعاية أبوية على الطلبة والمثل العليا معاً. وانتهز فرصة اضطراب قاعة المحاضرات لارتجاج الثديين النافرين وجعل يسلط سحر عينيه الزرقاوين على الجميع حتى ثابوا إلى الرشد والسكينة، ثم قال:

- يجب أن يوجد فرق هائل بين قاعة المحاضرات بجامعتنا وبين صالة بديعة!.

فضجت القاعة بالضحك فى غير موضعه..

ثم وهو يهز رأسه بطربوشه الطويل:

- تذكروا أننا جميعاً - نساء ورجالاً - هدف لمجهر الناقدين وأن جمهرة منهم لم تسلم بعد بمبدأ اختلاط الجنسين فى الجامعة، بل بمبدأ تعليم الفتاة تعليماً عالياً..

وفى نهاية المحاضرة استدعى سعاد وهبى لمقابلته فى حجرته. وخمنا موضوع الحديث وتنبأنا بنتيجته المحتومة. وكثيرون شعروا بالأسف لحرمانهم الوشيك من الإثارة اليومية الفاتنة. وغادرت سعاد وهبى حجرة الدكتور متجهمة الوجه. ولما رأت جموع المنتظرين فى الخارج قالت بحدة وبصوت مسموع متحد:

- لن أسمح لأحد بمصادرة حريتى الشخصية..

وأصرت على التمتع بحريتها حتى فوجئنا بصدور أمر بفصلها من الكلية!

كيف يمكن تقييم موقف الدكتور عقل من سعاد وهبى؟!. من الممكن أن يكون التوقف عند الوجه الأخلاقى المتزمت والتدخل السافر فى "الحرية

الشخصية" لسعاد، ومن الممكن أن تكون الأهمية للرؤية الموضوعية التى يطرحها الرجل عن المجتمع الذى لم يقتنع بعد باختلاط الجنسين وحق الفتاة فى التعليم العالى.

الرغبة فى إدانة إبراهيم عقل هى التى تعلى من شأن " الاضطهاد" الذى تتعرض له سعاد، أما النظرة المعتدلة فهى التى تجد فى منطق الدكتور ما يستحق الاهتمام. لقد دفع شخصياً ثمن "استفزاز" المجتمع وتقاليده ومشاعره، ومن هنا حرصه - الذى قد يوصف بالرجعية والتزمت - على الاعتدال والمهادنة والتطور البطىء المأمون.

قد يكون لتلاميذ إبراهيم عقل - ومنهم الراوى - رأيهم الحاد فى محاضرات وحيوية أستاذهم ، وقد يكون لهم رأيهم المعارض لما يرونه انتهازية سياسية فى سلوكه وممارساته، ولكن هذا لا ينفى أن للرجل من الأفكار والرؤى ما يستحق التأمل والتحليل.

إذا كان الراوى يأخذ على أستاذه عزوفه عن تأليف الكتب، فإن لإبراهيم عقل منطقه الذى لا يخلو من الوجاهة. وثمة حوار مهم يبدأ بسؤال من الراوى لأستاذه:

- لم لم تؤلف كتابا يا دكتور؟

ويجيب الدكتور بصوته الجهورى وهو يرمى سائله بنظرة متعالية:

- أتظن أن عالم الكتب فى حاجة إلى مزيد؟

وجعل يهز رأسه الكبير فوق قامته المديدة ثم قال:

- لو فرشنا بالكتب سطح الأرض لغطته مرتين.

ثم بامتعاض وازدراء:

- ومع ذلك فلو عددنا الكتب المتضمنة جديداً من الفكر لما غطت سطح زقاق.

ليس المقياس عنده أن تؤلف كتاباً، فما أكثر الكتب عديمة الجدوى، ولكن المهم هو الجديد الجاد الذى يضيف. ولعل فى امتناعه عن التأليف - الذى يراه تلاميذه سلبية وقصوراً - ما يعبر عن رؤية متماسكة ذات جذور.

وإذا كان الدكتور عقل متهماً فى ممارساته السياسية بالانتهازية والوصولية، فإنه يؤمن بجملة من الأفكار التى تستحق الاحترام وتنم عن توهج وعمق إذا تم التعامل معها بموضوعية وإنصاف بعيداً عن التعصب والأحكام سابقة التجهيز.

من الآراء السياسية المهمة للدكتور عقل، قوله معقباً على الانقلاب الدستورى لإسماعيل صدقى:

- إن حياتنا الدستورية مكسب ولكنها فى الوقت نفسه فخ.

ويشرح تلك المقولة موضحاً:

- انحرف الجهاد الوطنى عن غايته الأولى، غرقنا فى معاركنا الحزبية، ولدى كل انقلاب يحدث رد فعل فظيع فى العلاقات والأخلاق، ويوماً بعد يوم يتفتت البناء الشامخ الذى ورثناه عن ثورة 1919.

وفى سياق آخر يقول إن الاستقلال الحقيقى فى المثل العليا وبنك مصر.

ومن المقولات المهمة التى تتكرر كثيراً على لسان الدكتور عقل: لا يوجد مثل السياسة مفسدة للتفكير البشرى.

من المقتبسات السابقة يتشكل فكر سياسى متماسك للدكتور عقل، وعلى ضوئه يمكن استيعاب الموقف الموصوف بالانتهازية الذى اتخذه.

السياسة بشكلها العاطفى الغوغائى مفسدة للتفكير، والاستقلال الحقيقى عنده يتمثل فى الاقتصاد القوى "بنك مصر" والقيم الأخلاقية "المثل العليا"، أما الواقع السياسى المصرى فمتهرئ منحرف عن رسالة ثورة 1919 التى ينتمى إليها الجميع أو يدعون الانتماء إليها. ولذلك كله قد يكون دفاعه مبرراً عندما يميز بين من يخطبون ومن يعملون، وعندما يختار الانضمام إلى من يتصور أنهم يعملون! . ولكن السياسة – فى النهاية – مفسدة كما يعلق على ما يقوله اسحق بقطر! .

وقد يكون إبراهيم عقل – من منظور طلبته – محافظاً رجعياً متزمتاً، ولكنه متوافق مع نفسه فى تبشيره بالمثل العليا التى يعتبرها طوق النجاة والخلاص. ليس المهم أن نوافقه على دعوته، فالمهم أن نتعامل معها على أنها صادرة عن إيمان واقتناع.

فى محاضراته عن الأخلاق لم يكن الدكتور إبراهيم يكف عن المطالبة بالمثل العليا، وهو يلح فى ذلك إلى الدرجة التى تدفع أحد تلاميذه إلى أن يسميه ساخراً "دكتور مثل عليا". وهذا المطلب لا يرتبط عنده بالعقيدة الدينية: أرجو ألا تعتبروا المثل العليا نتيجة لعقيدة دينية، اعتبروها إذا شئتم المنبع الذى تتدفق منه العقيدة نفسها.

"المثل العليا" التى ينادى بها إبراهيم عقل تختلف جذرياً عن الأفكار المادية التى يبشر بها مفكر مثل سالم جبر، و إذ يجد فى تلميذه الراوى ميلا لترديد بعض آراء سالم الثورية المتطرفة، فإنه يحذره من الفلسفة

الكاذبة. ويرد الراوى مأخوذاً بما يسمع:

– الحق أنى أول ما سمعت عنكم كان لدى قراءة مقال له يدافع فيه عنكم!

فقال ساخراً:

– لم يكن دفاعا ولكن كان إحراجاً. فهو لا يرضى عن مفكر إلا إذا اشهر إلحاده أو فوضويته..

إنه ليس ملحداً – كما اتُهم – وليس فوضويا، وعنده نظرية خاصة يجابه بها سالم جبر عندما يشكو من احتقار الفرنسيين لمصر بسبب سوء حال الشعب: إنك تزور فى فرنسا أوساطا متطرفة لعلها تضمر نفس الاحتقار لفرنسا أيضا، على أن الإنسان لا تتقرر حاله الحضارية بما يملك ولكن بما ينبض به فكره وقلبه، وأنا شخصياً أعتبر الفقير الهندى أجل إنسانية من فورد أو روكفلر!.

واحتد سالم جبر فاتهمه بالمثالية الرجعية، كما اتهمه بالصوفية التى يعدها مسئولة عن تأخر الشرق.

إبراهيم عقل إذن متهم من المحافظين بالكفر والتعلق بأذيال المبشرين، وهو فى الوقت نفسه متهم من الثوريين بالمثالية الرجعية والصوفية!. الفقير الهندى عنده أجل إنسانية من أصحاب المليارات، وهو القائل من قبل أن الجلوس تحت شجرة فى يوم صاف خير من امتلاك عزبة!. هذه هى أفكاره بمعزل عن الاتفاق أو الاختلاف معها، وهى أفكار راسخة فى أعماقه ولا علاقة لها بالانتهازية والرغبة فى الصعود الوظيفى.

السياسة مفسدة، ولا ينبغى لها أن تهمل وتهدد الجانب الإنسانى

الموجود بالضرورة فى أى وكل إنسان. وفى هذا المستوى يتجلى إبراهيم عقل أبا عطوفاً حنونا كما عاين ذلك الراوى نفسه فى لقاء مع أستاذه بالإسكندرية: ولاحظت بسرور غرامه الأبوى بابنيه وملاطفاته لهما مما دعا زوجه لإعلان استنكارها لتدليله لهما. واستمالنى لأول مرة بعواطفه الأبوية.

وكان هذان الابنان نقطة تحول فى حياة إبراهيم عقل: فقد ابنيه الوحيدين فى وباء الكوليرا الذى اجتاح البلاد عام 1947.

وسار الرجل وراء النعشين بقامته الطويلة وقد تهدلت عضلات وجهه وغامت عيناه بظلمة كأنها صورة ناطقة لليأس الأعمى. ولم يهتم بشىء مما يدور حوله، ولكن عندما تقدم الدكتور ماهر عبد الكريم لتعزيته خفض جفنيه على دمع تفجر رغم إصراره على الظهور بمظهر الثبات والصبر.

وبعد سنوات طويلة من موت الابنين وموت الدكتور عقل نفسه، يقدم ضابط البوليس السياسى المتقاعد أحمد قدرى تفسيراً جديداً لموتهما. فهو يقول لقريبه الراوى:

- رئيسى رحمه الله همس لى يوما فى مجلس صداقة حميمة بأنهما قتلا!

- قتلا!

- اضبط أعصابك، ذاك تاريخ مضى وانقضى..

- ولكن كيف قتلا ومن الذى قتلهما؟!

- لا شئ مؤكد، صدقنى لا شئ مؤكد، حتى رئيسى نفسه لم يكن لديه أكثر من همس، تسلل إليه خبر عن غرام وامرأة هامة وشخص من رجال الملك وجريمة قتل فى بيت خلوى بالطريق الصحراوى..

ماتـا بالكولـيرا كمـا هـو الشـائع المعلـن أم قتــلا بمعرفــة الســراى ورجالهـا؟! المـهم أنـهما ماتــا وأماتــا معــهما صمــود الأب وقدرتــه علــى المقاومة.

بعد الموت المأسوى الفاجع تتغير شخصية الدكتور ويصـل إلى محطـة الدروشة والانعـزال الكـامل عـن العـالم، وهـذا التغيـير يلاحظـه – مبكـراً – صديق العمر الدكتور ماهر عبد الكريم الذى لا يخفى قلقه على صديقه الأثـير وينقـل مخاوفـه إلى تلميـذه الـراوى: جعـل يقـول بنـبرة متهدجـة إن المــوت جميل، وأنه مظلوم وأنه لولاه لما كانت للحياة قيمة..

وصح ما توقعه الدكتـور مـاهر وتخـوف منـه، فقـد تبدلـت أحـوال الدكتور إبراهيم فى الأعوام التالية للحادث: قيل إنه أصبـح يـرى كثـيراً فـى جـامع الحسـين. وأنـه يمضـى السـاعات متربعـاً أمـام المقام. وفـى كلمـة انــه يتدروش ويسلم للإيمان تسليماً بلا قيد ولا شرط.

وفى عام 1950 تـرك الدكتـور إبراهيـم عقـل الخدمـة لبلوغـه السـن القانونية فتفرغ تماما للدروشة.

هذه الدروشة تمنعه عن متابعة مسيرة الراوى عندما تقابلا مصادفة سنة 1953 معتذراً بأنه لا يقرأ، وهذه الدروشة هى التـى تبعـده عـن متابعـة الحياة السياسية فى مصر بعد ثورة 1952مكتفياً بالقول الذى يعكــس زهـده: هبوط صعود، موت بعث، مدنى عسكرى: فلتسر الدنيـا فـى طريقـها أمـا أنـا فإنى أستعد لرحلة أخرى.

ويموت الدكتور إبراهيم عقل سنة 1957.

لقد تحولت دروشة إبراهيم عقل فى سنواته الأخيرة إلى نموذج يستدعى ويُضرب به المثل.

بعد حريق القاهرة سنة 1952 وإقالة حكومة الوفد، لا يجد الدكتور زهير كامل ما يعبر به عن إحساسه بالمناخ السائد إلا أن يقول: ما أشبه حالنا السياسى بالدكتور إبراهيم عقل الذى بدأ باحثاً نابها وانتهى بالدروشة.

وبعد أن قضت ثورة يوليو على الوفد وجيل كامل من السياسيين الذين لم تتسع لهم الحياة الجديدة، يعود الدكتور زهير إلى تذكر الدكتور إبراهيم عقل وحالة الدروشة التى أصابته:

- على ذلك الجيل من السياسيين أن يتخذ من أستاذنا القديم إبراهيم عقل مثلا يُحتذى..

ويدهش الراوى للاستدعاء المباغت فيقول معقباً:

- الدكتور إبراهيم عقل يعانى حالة دروشة كاملة وقد لمست ذلك بنفسى فى لقاء عابر معه بحى سيدنا الحسين!

ولم يكن الأمر خافيا على زهير كامل وهو يضرب المثل:

- هذا ما أعنيه تماما، فالدروشة هنا أسلوب لمواجهة الكوليرا التى قضت على ابنيه..

إبراهيم عقل لا يملك إلا الدروشة سلاحا لمواجهة الموت والكوليرا، وعلى الجيل الوفدى المهزوم الذى لا يملك القوة الكافية لمواجهة ضباط يوليو أن يلجأ إلى الدروشة السياسية لإنقاذ ما يمكن إنقاذه!.

لم يخلق إبراهيم عقل كاتباً كما يقول عنه صديقه ماهر عبد الكريم، وهو – بتعبير الراوى – أستاذ بلا تلاميذ ولا مريدين. السؤال الذى يبدو طرحه ضرورياً: هل تبخر إبراهيم عقل بعد موته ولم يبق منه شئ؟!. الإجابة نجدها فى الأثر الوحيد الذى خلفه بعد موته، إذ عثر ابن أخيه على مخطوط له لترجمة غاية فى الجمال لديوان "أزهار الشر" لبودلير لم يعرف بالضبط تاريخ ترجمته. وهكذا بقى اسمه فى المكتبة العربية مقرونا باسم بودلير على ديوان " أزهار الشر".

أهى صدفة أن تكون الترجمة الوحيدة لإبراهيم عقل هى ديوان "أزهار الشر" للشاعر الفرنسى الرجيم بودلير؟!.

فى السنة التى مات فيها إبراهيم عقل – 1957 – كان محمد أمين حسونة قد انتهى من ترجمة "أزهار الشر" إلى اللغة العربية[3]، ولا يتسع المجال هنا للحديث عن شعر بودلير وما فيه من رؤى فكرية وقيم جمالية[4]، ولكن الالتفات ضرورى إلى أن شعره يمثل الصراع بين الخير والشر، بين قدرة الإنسان وفكرة العدم الماثلة أمامه.

وإذا نحينا بودلير وديوانه جانباً، فإن حياة إبراهيم عقل تمثل بدورها صراعاً بين الخير والشر، بين قدرة الإنسان المحدودة وفكرة العدم التى تطارده وتهدده!.

(3) أعيد نشر ترجمة حسونة فى سلسلة "آفاق الترجمة"، العدد الثامن، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، فبراير 1996.
(4) راجع – بالعربية – على سبيل المثال: عبد الرحمن صدقى: الشاعر الرجيم بودلير، دار المعارف، سلسلة اقرأ، العدد السابع، ط2، د.ت.

الفصل الثاني

زهير كامل

ليس مثل الدكتور زهير كامل فى التعبير عن الفساد والانتهازية والسلوك المعوج المسيطر على أفعال الشخصية التى عملت فترة طويلة فى الجامعة قبل أن تتفرغ للمتاجرة فى السياسة والنقد الأدبى مقدمة مثلا بالغ الرداءة للانحطاط والإسفاف.

عندما التحق الراوى بالجامعة كان زهير كامل معيداً بقسم اللغة العربية تمهيداً لإرساله فى بعثة إلى فرنسا: وسمعنا عنه ثناء طيباً من الدكتورين ماهر عبد الكريم وإبراهيم عقل فقال الأخير عنه مرة:

- إنه مثال للفلاح إذا نبغ.

وحدثنى رضا حمادة عنه فقال:

- عرفته فى بيت الأمة خلال اجتماعات الطلبة وهو من سمنود ويعرف مصطفى النحاس معرفة شخصية.

شاب ناجح علميا وينتمى إلى حزب الأغلبية الشعبية، وهو فى الجامعة والسياسة معا يبشر بمستقبل طيب كما تدل على ذلك شهادة أستاذه إبراهيم عقل ومعرفته الشخصية بالزعيم الجليل مصطفى النحاس. البداية تنبئ بالخير، والرحلة تستمر فى استواء لا نشاز فيه: وسافر فى البعثة عام 1932 ثم رجع دكتوراً عام 1939 فعين مدرس"ب" بهيئة التدريس الجامعية. وفيما بين تاريخ تعيينه وعام 1950 تركز نشاطه الفكرى فى الجامعة والتأليف، فأصدر كتبه المعروفة عن نظريات النقد العامة، ونقاد من الشرق والغرب، ودراساته عن شكسبير وراسين وبودلير واليوت والشعراء الأندلسيين. وكان يتردد على صالون الدكتور ماهر عبد الكريم فتوطدت بيننا صداقة متينة، وتزوج فى أثناء الحرب من فتاة يونانية كانت تعمل فى محل فينوس فأنجب منها ولدين وبنتاً. وكان أستاذا جامعياً بالمعنى الدقيق، يكرس حياته للبحوث الأكاديمية، ولا حديث له خارج مضامينها، فلم أعرف له اهتماماً عاما آخر. وحاولت أحيانا أن أستشف فيه الطالب الوفدى القديم فلم أفلح.

تغير منطقى طفيف ينم عن التطور والتقدم لا الانقلاب والتراجع. وليست كتبه التى تعكس نشاطه، وانكبابه على العمل الجامعى بإخلاص، والشروع فى بناء اسرة؛ ليس هذا كله إلا بمثابة الامتداد لبدايته. بل إن اعتزاله للسياسة وابتعاده عن الوفد يبدو مبرراً وطبيعياً لأنه قد لا يستطيع الجمع بين العلم والسياسة.

ينتهى التوافق سنة 1950 لتبدأ حياة جديدة مختلفة جذرياً عما كان: وفى عام 1950 فاجأنا بما لم نتوقع أبدا. فرشح نفسه على مبادئ الوفد

في إحدى دوائر القاهرة وفاز بأغلبية ساحقة، وأثار سلوكه تساؤلات كثيرة ولكن الدكتور ماهر عبد الكريم قال رغم تحفظه الشديد:

- إنه قرار يستحق الأسف.

ما الذى يدفع أستاذا جامعياً ناجحاً إلى المغامرة بالوظيفة الجامعية المحترمة المضمونة فى سبيل منصب نيابى لا يمنح إلا مكافأة ضئيلة متواضعة لا ضمان لاستمرارها ؟!.

الترشيح على مبادئ الوفد ليس تهمة لوفدى قديم، والسعى إلى تمثيل الشعب ليس مدانا، بل إن اللجوء إلى كتابة المقالات السياسية فى الصحف الوفدية والدراسات النقدية التى تمثل استمرارا لتخصصه العلمى الذى هجره، هذه الكتابة ليست إلا وسيلة شريفة مشروعة على المستويين المادى والمعنوى.

الانحراف الحقيقى يتمثل فى الهمسات التى تتردد وتكشف عن سلوك لا يليق بأستاذ جامعى سابق ونائب عن حزب شعبى، و لا يجد الراوى إلا النائب الوفدى المخلص رضا حمادة ليسأله:

- ما رأيك فيما يقال عن زهير كامل؟

وتأتى الإجابة مصحوبة بامتعاض شديد:

- يقال إنه أصبح سمسار وظائف..

لا يقدم الراوى - ولا يملك - تفسيرا مقبولاً للتغيير الذى طرأ على الدكتور زهير وأحاله إلى كائن جديد، وغاية ما يستطيعه هو اللجوء من جديد إلى رضا حمادة ليسأل ويتساءل فى حيرة:

– ولكن هل تتصور أن زهير كامل نبذ الأستاذية في الجامعة ليمارس النهب والفساد؟

وينطوع رضا بطرح تصوره الخاص الذى لا يملك دليلا عليه:

– إنى أتصوره وغدا من البدء غير أنه كان يتحين فرصة لاستغلال مواهبه حتى وجدها فى السياسة..

الراوى لا "يتصور" أن تُنبذ أستاذية الجامعة فى سبيل النهب والفساد، ورضا حمادة لا "يتصور" الرجل إلا منحرفاً منذ البدء، وكلاهما لا يقدم إلا "تصوراً" لا يمكن الركون إليه والاعتماد عليه. ذلك أن حياة الدكتور زهير حتى سنة 1950 لا تكشف عن بذور وجذور الانقلاب المباغت!.

وتبرهن الأحداث على حماقة الدكتور وتسرعه فى قراره بالتخلى عن الجامعة، فقد احترقت القاهرة وأقيلت حكومة الوفد وسقط البرلمان الذى ينتمى إليه: ولما أقيلت حكومة الوفد عقب حريق القاهرة حاول الدكتور زهير الرجوع إلى الجامعة ولكنه لم يفلح. وواصل حياته ككاتب سياسى وناقد ولكنه بات ينظر إلى المستقبل بقلق وبخاصة وأنه كان اعتاد مستوى من المعيشة الرفيعة.

فشلت محاولة العودة إلى الجامعة حيث الأمان والاستقرار، ولم يعد أمام زهير كامل إلا مواصلة العمل فى السياسة والصحافة دون شعور بالثقة فى المستقبل. وليس من سبيل لاستعادة الأمل إلا المراهنة على حتمية عودة الوفد، وعلى هذا الأمل يراهن زهير: ما زال الوفد أفضل الجميع وسيضطر الملك إلى استدعائه عاجلاً اتقاء لانفجار ثورة شاملة!.

ولكن أزمة زهير كامل تزداد تعقيداً بقيام ثورة 23 يوليو التى

نسفت العهد القديم كله، ملكاً وحزباً ونظاماً برلمانياً: وسرعان ما وجد نفسه فى مأزق لم يعمل له حسابا. أغلقت دونه أبواب السياسة والجامعة وتحير ماذا يفعل وماذا يكتب.

لم تستمر الحيرة طويلا، ففى انتهازية سافرة فاجرة خلع زهير كامل ثوبه القديم وانقلب ليهاجم حزبه متنصلاً من تاريخه القريب: انقض بمقالات من نار على الوفد مرجعا إلى فساده كل فساد نخر فى عظام الوطن. وأثارت المقالات عاصفة من الغضب المكتوم فى صدور الوفديين ولكن أحدا لم يستطع أن يقلل من خطورتها لصدورها من رجل له تاريخه الجامعى الوقور فضلاً عن اشتراكه فى برلمان الوفد الأخير، وتعين صحفياً فى إحدى الجرائد الكبرى، وسرعان ما اعتبر قلمه من أقلام الثورة، كما عُهد إليه بتحرير صفحتها الأدبية فقاد نقد الأدب المعاصر. وبسبب مسئولياته الجديدة، وربما خجلاً من انقلابه المفاجئ تجنب إلى حين التردد على صالون الدكتور ماهر عبد الكريم. وتساءل الدكتور ماهر:

- ألم يكن الأفضل له أن يبقى فى الجامعة؟

وتساءل الأستاذ رضا حمادة:

- أرأيت ماذا فعل الوغد بنفسه؟

قبل أيام من ثورة يوليو كان الدكتور زهير يؤكد أن الوفد أفضل الجميع وعودته حتمية لاتقاء الثورة، وعندما خابت المراهنة لا يجد حرجاً فى اللحاق بالركب الجديد على حساب انتمائه الحزبى. كيف لا ترحب الثورة بأستاذ جامعى محسوب على الوفد وهو يتطوع بالانقلاب العنيف على النظام الذى هدمته؟!.

هكذا تتم الصفقة بين الطرفين ولا خسائر عند زهير إلا الانقلاب النفسى والانقطاع المؤقت عن عالمه القديم الذى يتمثل فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم المشفق على تلميذه والمتحسر - بعد كل ما حدث - على تركه للجامعة واختياره للسياسة المتقلبة والانتهازية الدائمة.

يتخلص زهير من خجله ويعود إلى صالون أستاذه، ويجد القدرة على تبرير موقفه لصديقه الراوى الذى يشاركه فى الانتماء الوفدى ولا يماثله فى السلوك الانتهازى الفج:

- لم تكن ثمة جدوى من المقاومة، ولِمَ أقاوم ؟

وقال أيضاً:

- كنت على وشك الإفلاس، ولكن لم يكن المال وحده هو الدافع فأنا مطمئن الضمير!.

وهنا يتساءل الراوى:

- إذن فأنت تؤمن بثورة يوليو؟

ويرد الدكتور:

- إنها حركة مباركة منعت بقوتها الذاتية اشتعال ثورة لاحت مخالبها فى الأفق!

ثم يواصل دفاعه وتبريره:

- وأعترف لك بأنى لست ثورياً، فكما لا أوافق على رجعية الإخوان فإنى لا أوافق أيضاً على ثورية الشيوعيين، وأؤمن بالإصلاح الرزين الذى

نتأثر خطاه، وهو طريق الوفد أيضا لو قيض لجناح شبابه أن ينتصر..

لا جدوى من المقاومة ولابد من الاستسلام ومسايرة العهد الجديد، ويأبى زهير كامل التسليم بأن دوافعه ذاتية انتهازية خالصة فيضيف إليها بعداً فكرياً سياسياً يجلب له راحة الضمير! . إذا لم يكن بد من سقوط الوفد والنظام القديم كله، فإن ثورة يوليو هى البديل الذى يمثل امتداداً للوفد لا انقطاعاً عنه. البدائل الأخرى مكروهة مرفوضة: الإخوان المسلمون والشيوعيون، فكأن ثورة يوليو هى "أهون" البدائل[1]!.

وعلى الرغم من انتهازية زهير كامل التى لا تحتمل التأويل، فإن حنينه لا ينقطع للوفد. وهو يعترف للراوى بما يدور فى أعماقه:

– ألم يكن الأفضل أن يتم ما تم بيد انتفاضة شعبية بقيادة شباب الوفد!

ويرد الراوى:

– المهم أن يتم ما تم.

فقال بعد تأمل:

– ولكن الإنسان لا يستطيع التخلص من عقليته الخاصة ولذلك فقل على الحرية السلام!

(1) قد يكون مفيدا هنا أن نشير إلى أن نجيب محفوظ نفسه – فى عموم عالمه الروائى – لا يرى تناقضا جذريا بين الوفد وثورة يوليو، والقراءة المتأنية لأعماله تكشف عن شعوره بالحسرة والمرارة لغياب التعاون بين الوفد وضباط يوليو. المزيد من التفاصيل فى الفصل الذى يحمل عنوان" الوفد وثورة 23 يوليو" فى دراستنا عن"الرؤية الوفدية فى أدب نجيب محفوظ".

لو تم ما تم بمعرفة شباب الوفد لاستمرت الحرية، أما الضباط فقد ذهبوا بالحرية والوفد معاً! . وفى هذا السياق الذى يبرر الانهزامية والانتهازية يمكننا أن نفهم سر استدعاء زهير كامل لأستاذه إبراهيم عقل الذى جذبته الدروشة بعد موت ابنيه، فهو يراه نموذجاً ومثلاً يُحتذى به! . الدروشة عند زهير أسلوب لمواجهة ما تستحيل مقاومته: إذا صادفتك كارثة يستحيل التغلب عليها فعليك بالدروشة، أى نوع من الدروشة، أما المقاومة غير المجدية فترمى بك إلى المعتقل! .

لم يتبخر الوفد من قلب زهير كامل على الرغم من الثورية الزائفة التى اتخذها مهنة، ويعلم الراوى أن الدكتور زهير حمل صديقاً رسالة خاصة إلى مصطفى النحاس يعتذر له فيها عما بدر منه فى حقه، ويشرح له الظروف القاسية التى اكتنفت قراره.

ولا تتوقف انتهازية زهير عند الانتماء الشكلى لثورة يوليو والانقلاب الشرس على ما قبلها، فإذ تتخذ الثورة سياسة اشتراكية يتحول الليبرالى القديم فجأة إلى دراسة الاشتراكية والإيمان بها: وفى أعوام قلائل متتابعة ترجم أربعة كتب عن الاشتراكية، ثم أصدر فى النهاية مؤلفه المعروف" اشتراكية هذا الوطن".

والعلاقة الوثيقة بين الراوى وزهير كامل تقف حائلاً منيعاً أمام أى تصور عن صدق التوجه الاشتراكى الجديد لرجل موغل فى إيمانه بالديموقراطية الليبرالية، وإذ يسأله الراوى ضاحكاً:

– كيف انقلبت اشتراكياً بهذه السرعة الجنونية؟

يجيب الدكتور زهير ضاحكا هو الآخر:

- الناس على دين أوطانهم.

ويعود الراوى ليسال:

- أتعتقد أنهم يصدقونك؟

فيجيب بلا تردد أو تفكير:

- لم يعد أحد يصدق أحداً.

ثم قال والضحك يعاوده:

- المهم ما تقول وما تفعل.

واجتاحته موجة من الضحك ثم قال:

- يتساءلون كثيراً عن سر ازدهار المسرح، أتدرى ما هو سر ذلك؟، السر أننا صرنا جميعاً ممثلين!.

ليست المشكلة هنا فى زهير كامل وحده، ولكنها أيضاً فى المناخ الذى يتيح لأمثاله أن يوجهوا ويسودوا. لقد تحول الأمر إلى مسرحية هزلية ركيكة يعى الجميع فيها أنهم يمثلون ويخدعون ويكذبون، ولا يصدق أحد أحداً .

ولم يكن زهير كامل " الناقد" مختلفا عن زهير كامل "السياسى"، فقد عانى الناقد انقلاباً شاملاً مماثلاً: فبكل استهانة مضى يتاجر بالنقد. مضى يتقبل الهدايا والنقود ويقيم الفن والفنانين تبعاً لذلك. وبازدهار الحركة المسرحية والإنتاج السينمائى تضاعفت أرباحه فشيد فيللته الأنيقة بالدقى واقتنى المرسيدس.

تجارة نقدية بعد التجارة السياسية، وكلا التجارتين تدر على الأستاذ الجامعى القديم أرباحا هائلة تمنحه حياة مادية يحيطها الجاه والنعيم بقدر ما تسلب من روحه كل توافق وصدق. ولأن الانهيار لا يعرف التوقف، والسقوط بلا نهاية دائما، فقد واصل الدكتور زهير مسلسل التردى والانهيار بتأليف كتاب عن "جاد أبو العلا" الذى تكشف "المرايا" فى مواضع عديدة[2] منها عن تفاهته وتهافته وادعائه: ومهما يكن الثمن الذى قبضه – قيل إنه طاقم تحف عربية وألف جنيه – فقد دل على أن صاحبى تمرغ فى السقوط حتى فقد إحساس الحياء الذى يصاحبه، وصدق عبده البسيونى عندما قال يوماً فى حديث جرى لمناسبة الرسالة المذكورة:

– هذا كتاب لا يجرؤ على تأليفه إلا مومس!.

زهير كامل يمارس الدعارة الفكرية، وتاريخه الجامعى القديم مجرد حلية يستعين بها لتحقيق مزيد من النجاح فى الفساد والانتهازية. وكأنما يتحدث زهير عن نفسه وأمثاله من الفاسدين عندما يقول: الزيف فى الحياة منتشر كالماء والهواء وهو السر الذى يجعل من باطن الإنسان حقيقة نادرة قد تخفى عن بصيرته فى الوقت الذى تتجلى فيه لأعين الجميع.

ويواصل فى نبرة تسليم يائسة: بت أعتقد أن الناس أوغاد لا خلاق

(2) يؤكد الراوى أنه لم يستطع أن يتم قراءة رواية واحدة لجاد، وأنه بلا موهبة تذكر "69".
ويعترف عبده البسيونى أنه كتب لجاد أغلب مسلسلاته الإذاعية والتلفزيونية!"74".
أما عجلان ثابت فيصفه بالرجل الزائف"75".
وليس هذا إلا القليل من الكثير الذى يمكن أن يقال عن الرجل الذى ألف عنه الدكتور زهير رسالة كاملة!.

لهم، وأنه من الخير لهم أن يعترفوا بذلك، وان يقيموا حياتهم المشتركة على دعامة من ذلك الاعتراف، وعلى ذلك تصبح المشكلة الأخلاقية الجديدة هي: كيف نكفل الصالح العام والسعادة البشرية فى مجتمع من الأوغاد والسفلة؟!.

أهو رثاء للذات أم توصيف للواقع ؟!. أغلب الظن أن فى مقولاته ما يحقق الغرضين!. الزيف فى الحياة وفى أعماقه معاً، وليس دقيقاً أن المجتمع كله من الأوغاد والسفلة، فالصحيح أن الدكتور يتعامل من منطلقات لا أخلاقية تدفعه إلى التعميم الذى قد لا يخلو من الحكمة والصواب بقدر ما لا يخلو – فى الوقت نفسه – من التطرف والخلل.

ولا ينجو زهير كامل فى حياته الشخصية من ذلك المناخ الذى يراه سائداً ومحملاً بالزيف والفساد والانحلال.

فى العام التالى للنكسة صمم ابناه المهندسان على الهجرة إلى كندا، وهى هجرة تحزن الفلاح القابع فى أعماق الدكتور زهير: أنا فلاح، ومن طبيعة الفلاح حبه لالتصاق أبنائه به.

وتستهين ابنته بكل التقاليد والأعراف فتتزوج من شاب يونانى، أما الزوجة فتستقر بصفة نهائية فى موطنها الأصلى لتنفرد الوحدة بالرجل وهو فى الستين من عمره مريضاً بالسكر والضغط.

ويحاول الدكتور أن يقاوم الوحدة والمرض بالزواج من الصحفية الشابة نعمات عارف التى لا تتجاوز العشرين، ولا تتورع الزوجة عن خيانته مع الدكتور صادق عبد الحميد!.

يشرب الدكتور زهير – حتى الثمالة – من الكأس التى طالما وزع

منها على الجميع، ويزداد المرض فيلزمه الفراش متهيئاً لرحلة الموت.

حياة حافلة بالشرور والآثام إلى الدرجة التى تدفع شخصاً معتدلا مثل قدرى رزق إلى التعجب من أن رجلاً مثل رضا حمادة ورجلاً مثل زهير كامل ينبتان من أرض واحدة!.

وثمة مقارنة مماثلة بين الرجلين يعقدها الراوى: أحدهما يحتوى على طوية عفنة تتقزز منها الحشرات والآخر تستقر فى أعماقه روح نبيل يستحق الفرد من أجله أن يقدس ويعبد.

وإذا كان قدرى رزق والراوى لا يصارحان الدكتور زهير بحقيقة رأيهم فيه، فإن سالم جبر لا يتورع عن المصارحة الجارحة عندما يقول له: أنت لا تنقد ولكنك تقتل القيم.

الفصل الثالث

سرور عبد الباقي

عندما انتقل الراوى – فى طفولته – من حيه الشعبى القديم إلى العباسية، بدأت علاقته الوثيقة مع مجموعة من الرفاق الذين صاحبوه فى رحلة العمر: جعفر خليل وسرور عبد الباقى وسيد شعير وعيد منصور ورضا حمادة وخليل زكى وشعراوى الفحام. وعند أول سؤال يطرحه سرور عبد الباقى على الوافد الجديد، يلاحظ الراوى الطفل أنه يختص بأدب يتميز به عن الآخرين.

ومن بداية التعارف إلى نهاية الرحلة الروائية، يتشبث سرور عبد الباقى بالمثالية التى نجد جذورها فى ذلك" الأدب" الذى لاحظه الراوى فى اللقاء الأول بينهما.

وفى سلوك وآراء سرور– خلال مرحلتى الطفولة والصبا – ما يكشف عن تدينه والتزامه الأخلاقى، فهو لا يجد ما يفسر به توتر العلاقة بين خليل زكى وأبيه إلا أن يقول: إن الله سلط عليه أباه كما سلط الطوفان على آل نوح!.

ويأبى سرور إلا أن يتحقق الانتقام الإلهى من قاتل الطلبة عشماوى جلال فيزعم أنه فقد البصر وعجز عن الحركة وأنه يتكتم ذلك حتى لا يشمت الناس به.

وعندما يغرق الراوى فى قصة حب مجنونة مع صفاء الكتاب، ينصحه سرور بما يكشف عن طبيعته العاقلة الرزينة: لا تستسلم وإلا جننت كمجنون ليلى..

هذا التطهر الأخلاقى لا ينسجم مع أفراد الشلة الأكثر تحررا، ويتمثل الخلاف فى صورة مشاجرة بين سرور و"الوقح" خليل زكى. على الرغم من أن خليل لا يهتم بالغناء، فإنه يرفض ما يذهب إليه سرور من أن صوت المطربة "الجديدة" أم كلثوم أحلى من صوت منيرة المهدية، وينتهره بوقاحته المعهودة:

– لا تردد آراء أمك بيننا!

وغضب سرور عبد الباقي وصاح به:

– لا شأن لك بأمي يا قليل الأدب.

وجاء الرد فى صورة لطمة، ثم اشتبكا فى معركة حتى فصلنا بينهما .

وبسبب تطرف سرور فى المثالية الأخلاقية كادت شلة الأصدقاء أن تنقسم وتتفرق مبكراً، فقد طالب بالتزام الأدب فى السلوك والكلام:

– يا جماعة .. يجب ألا تتردد بيننا كلمة بذيئة وأن نتعامل باحترام.

وفى الحال شخر خليل زكى وسيد شعير فى وقت واحد تقريباً، فعاد سرور يقول:

- وإلا سأضطر مقاطعتكم!

ويتدخل الراوى بجزع يكشف عن حبه لسرور:

- اقترح ما تشاء ولكن لا تفكر فى المقاطعة..

وقال رضا حمادة:

- كلامه يستحق التقدير!

فقال جعفر خليل:

- البذاءة فى الكلام كالملح فى الطعام.

وقال عيده منصور:

- يا جماعة أنا لا أستطيع أن أذكر والد أحدكم او أمه إلا إذا قرنته بالسب المناسب.

وقال شعراوى الفحام محذراً:

- يا جماعة إذا خلت اجتماعاتنا من قلة الأدب فقل عليها السلام!

وتداولنا فى الأمر باهتمام جدى ثم تم الاتفاق على مواصلة المعاملة الحرة فيما بيننا مع استثناء سرور عبد الباقى فيعامل معاملة مؤدبة خاصة.

رد الفعل الفورى من خليل وسيد على اقتراح سرور يكشف عن الاختلاف والتفاوت بين أفراد المجموعة، وجزع الراوى ينم عن الحب

والتمسك بصداقة سرور، واستثناء سرور يعبر عن خصوصيته التى لا يملك الآخرون إهدارها وتجاوزها.

ومثالية سرور ليست نظرية كلامية فحسب، بل هى سلوك عملى أيضاً. فإذا تستجيب المجموعة – بكامل أفرادها – لدعوة سيد شعير ويذهبون معه إلى حى الدعارة لأول مرة، فإنه الوحيد الذى يتخلف!

منذ البدء تتميز شخصية سرور الذى تغلب عليه نزعة أخلاقية متطهرة فى أقواله وأفعاله، والبحث عن مكونات الشخصية يقود بالضرورة إلى أسرته وأسلوب تربيته: كان أبوه محامياً ذا شهرة ومال، وكانت أمه قوية الشخصية تحكم بيتها بسيطرة لا تقاوم يخضع لها الأب والابن والبنتان. وكانت بخيلة فيما بدا. تساوم الباعة المتجولين بلا رحمة، ومن أجل مليم واحد تلغى صفقة، وتزن مشترياتها فى ميزان خاص ابتاعته لذلك. وظهر أثر ذلك كله فى سلوك سرور بيننا بالتهذيب والأدب والاقتصاد. وكانت علاقته بنا ذات نوع خاص، فهو لا يفارقنا، وهو لا يندمج فينا، ويتجنب مشاركتنا فى مزاحنا الطليق ونكاتنا اللاأخلاقية.

الأم الصارمة قوية الشخصية هى صاحبة الدور الأكبر فى تشكيل ملامح سرور، وهى المسئولة عن سلوكه المختلف مقارنة بشلة الأصدقاء الذين يحتاجونه بقدر ما يعارضونه.

وعلى الرغم من اجتهاد سرور فى الدراسة، فان ذكاءه موضع شك عند أقرانه: كان تلميذا مجتهداً، ولكن نجاحه كان دائماً دون اجتهاده، والحق لم نكن نؤمن بذكائه!.

وهو يختلف عنهم أيضا فى الانصراف الكامل عن السياسة والزهد

فى الثقافة: والأوقات التى كنا نخصصها للقراءة كان يقضيها فى حديقة بيته ممارساً هوايته فى رعاية الزهور أو رفع الأثقال.

كانت دراسة الطب هى طموح سرور من فترة مبكرة، ولكنه لم يتمكن من الحصول على مجموع يؤهله للالتحاق بكلية الطب: ولذلك أقنع والديه بوجوب الالتحاق بكلية الطب فى لندن، وكان المتبع أن تقبل الكلية المصرية الطالب إذا نجح عامين فى إنجلترا. وسافر إلى إنجلترا فدرس الطب عامين بنجاح ثم رجع إلى مصر فالتحق بكلية الطب.

مثلما استطاع سرور أن يفرض على أصدقائه معاملته بشكل مختلف، فإنه يفرض على أسرته أن تحقق حلمه. الإصرار إذن مفتاح مهم فى شخصية سرور الذى يفرض بإرادته ما يريد، وهو الإصرار الذى يتيح له أن ينجح فى إنجلترا بعد أن فشل فى مصر. ويثير هذا النجاح مناقشة بين أفراد الشلة تلقى مزيداً من الضوء على شخصية سرور من ناحية وعلى النظام التعليمى فى مصر من ناحية أخرى. يقول رضا حمادة:

- ليس سرور غبيا كما توهمنا وإلا ما نجح فى انجلترا!

ويضيف عيد منصور:

- وليس نظام القبول بكلية الطب المصرية سليماً كما يظن.

ويقول جعفر خليل:

- وليست الفرص متكافئة بين الأغنياء والفقراء!.

الشكوك تتبدد حول ذكاء سرور، ولكن الشكوك تتزايد بالنسبة لنظم القبول بالجامعة المصرية ومدى العدالة المتوفرة فيها!.

وتخرج سرور عبد الباقى فى الكلية عام 1936، وتزوج بعد أربعة أعوام من فتاة من أسرة كبيرة، وتقدم فى عمله عاما بعد عام حتى عد من كبار الجراحين في مصر، وربح من ذلك أموالاً طائلة فشيد عمارة كبيرة فى وسط المدينة وبنى لنفسه فيللا غاية فى الجمال بالمعادى، ولم يتخل يوما عن مبادئه الأخلاقية حتى عرف بأخلاقه وإنسانيته كما عرف ببراعته. وهو طبيب مثالى، مهارة فى العمل، وغزارة فى العلم، ورحمة بالمرضى، وبعدا عن الجشع والاستغلال. وهو محبوب جداً من طلابه، وكثيراً ما خاض معارك حادة فى مجلس الكلية بسبب مثاليته التى لا تعرف المهادنة.

جراح ناجح، وزوج سعيد، وأستاذ جامعى مرموق، ومبادئ أخلاقية سامية، وشعبية تنبع من مثاليته ومهارته ورحمته؛ ولكن ذلك كله لا ينفى أنه بعيد عن المجتمع ومنعزل عن الواقع ومنصرف عن الثقافة والسياسة: وبالرغم من علمه الواسع وتجربته الفذة ظل طفلاً ساذجاً بالنسبة للثقافة والعقائد والسياسة ولم ينعم بأى نظرة شمولية للمجتمع الذى يتألق فيه كنجم من نجومه.

مع ثورة يوليو يهتز الاستقرار ويدب القلق. " سلبت" الثورة من ملكية أسرة زوجته خمسمائة فدان بجرة قلم، "وسلب" العهد الجديد حقه فى عمادة كلية الطب وهو الأكفأ والأحق بالمنصب. امتلأت نفسه بالمرارة والحزن، وقال للراوى:

– فكرت طويلاً فى الاستقالة للتفرغ لعيادتى الخاصة.

ثم قال بإخلاص يقدره الراوى ويؤمن به:

– ولكنى لا أحب أن أتخلى عن واجبى العلمى!.

لم يستقل من الجامعة، ولكنه خرج - مضطرا - من عزلته ليراقب تطور المجتمع الذى لم يهتم به يوما!.

بعد صفقة السلاح المشهورة مع تشيكوسلوفاكيا، جزع الدكتور سرور وقال:

- هذه هى الخطوة الأولى نحو الشيوعية!

وبعد فشل العدوان الثلاثى يصر الدكتور سرور أن ينسب الفضل كله إلى الولايات المتحدة الأمريكية دون الاتحاد السوفيتى، ويجاهر بالدعوة إلى مصادقة أمريكا:

- يحسن بنا ألا نفرط فى الصداقة الأمريكية بعد اليوم.

أما القوانين الاشتراكية فتصيبه بالرعب حتى أن زوجته تنصحه بالهجرة! وثمة حوار دال بين الدكتور سرور والراوى يكشف عن رؤيته المعادية للاشتراكية وثورة يوليو معا، فهو يقول:

- الاشتراكية تعبير عن الحقد على المتفوقين.. وقد استولى حكامنا على السلطة بقوة السلاح لا العلم..

وإذ يسأله صديقه الراوى:

- وما رأيك فى مشكله الفقر فى مصر؟

يجيب بسذاجة:

- كل يتقرر موضعه على قدر طاقته وتلك هى حكمة الله سبحانه!

الانحياز للولايات المتحدة مبرر ومنطقى لأسباب اقتصادية

واجتماعية وأيدلوجية، والعداء لثورة يوليو والاشتراكية يتوافق مع رجل لا يرى إلا نفسه ويرفض الانفتاح على الآخرين والإحساس بهمومهم. لا تناقض بين مواقفه هذه وأخلاقياته السامية، فهو مخلص فيما يعتقد،و "سذاجته" - بتعبير الراوى - ليست إلا منظومة فكرية متكاملة.

ولا يخفى الراوى جزعه لما أنس فى صديقه المثالى من نبرة شماتة فى أعقاب هزيمة 1967. وشد ما جزعت عندما أنست فى نبرته شماتة عقب هزيمة 5 يونيه 1967 : عندما لم يحسن مداراة فرحته بما ظنه النجاة.

ولكن الراوى نفسه لا ينكر أن الدكتور سرور عبد الباقى من الأخلاقيين الجديرين بالاحترام والتقدير، ويضعه فى خانة واحدة مع الوفدى الصلب رضا حمادة والماركسى المخلص كامل رمزى. مختلفون فى السياسة والعمل، وتجمعهم الشخصية الأخلاقية التى تتجاوز المعتقدات والمهن!.

الفصل الرابع

عزمي شاكر

فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم - سنة 1960 - بدأت علاقة الراوى مع الدكتور عزمى شكرى. دكتور فى التاريخ من فرنسا، متزوج من مدرسة فى كلية العلوم، والانطباع الأول إيجابى: جذبنى بذكائه وثقافته وصراحته وأشعرنى تماماً بأنه من الناس الذين يأخذون الأمور مأخذ الجد، ويلتمسون السبل إلى الأمل.

الدكتور عزمى - كما يحكى عنه المفكر سالم جبر - بدأ حياته السياسية وفدياً ذا اهتمام بالمشكلات الاجتماعية، أما عزمى فينفى الانتماء الحقيقى إلى الوفد " التقليدى" ويقول للراوى معبراً عن هويته الحقيقية: لم تكن وفديتى قوية كالحال فى جيلكم، وتخلصت منها تماماً قبيل الثورة، ولكنى بقيت على صلة حميمة بالجناح الوفدى اليسارى، وعددت منذ ذلك الوقت من الشيوعيين وعرفت بذلك فى أوساطهم..

يقف عزمى إذن - قبل ثورة يوليو - على يسار الوفد قريباً من

الطليعة الوفدية التى مزجت بين الأيمان بليبرالية الوفد الشعبية والتبشير بالأفكار الاجتماعية التقدمية، وفى هذا السياق يبدو موقف الدكتور من ثورة 23يوليو مفهوما ومبرراً: استقبلتها بترحاب وحذر معاً، أعجبت بإلغائها للنظام الملكى وبتحقيقها للجلاء، ولم أعجب كثيراً بإصلاحها الزراعى، وسرعان ما اعتبرتها انقلابا قصد به الإصلاح وتفادى الثورة الحقيقة..

هل ينم هذا الموقف عن رؤية الطليعة الوفدية أم عن توجه فصيل معين فى الحركة الشيوعية المصرية؟!. مثل هذا التحليل الذى يجمع بين الإعجاب والتحفظ، لا يروق للثورة التى فصلته من الجامعة واعتقلته. بعد الإفراج عنه يتجه الدكتور عزمى إلى العمل فى الصحافة مهتماً فى كتاباته بالشئون الخارجية والتاريخية وهى الموضوعات التى تتيح له أن يعبر عن حقيقة آرائه.

التغيير الحقيقى الذى يطرأ على رؤية الدكتور من ثورة يوليو يتحقق بعد توجهها الاشتراكى وصدور القوانين الاشتراكية في يوليو 1961، فهو يقول بعدها:

- الثورة هى أنسب حركة تاريخية لوطننا فى ظرفه الراهن.

ويطالب بتأييد الثورة دون تحفظ أو تردد:

- أجل، علينا أن نضع عقائدنا بين قوسين، وأن نؤيدها بكل قوانا!.

وإذا كان هذا التغيير مقنعاً للراوى الذى لا يشك فى إخلاص صديقه ولا يشكك فى نواياه، فإن الزملاء القدامى للدكتور يتعاملون بمنطق مختلف.

واحد منهم – عجلان ثابت – يرى أنه وغد لا أكثر ولا أقل، ومهما خطر فى لباس قديس!.

الراوى أكثر إيمانا بتحولات الدكتور عزمى وأكثر يقيناً بصدورها عن إخلاص حقيقى لا انتهازية فيه، ويسجل له أنه لم يكن مؤيداً أعمى أو متعامياً للثورة، فلم تكن تخفى عنه الأخطاء التى ترتكب. وكثيراً ما كان يردد:

– مما يؤسف له أن الثورة لم تعتمد على الثوريين الحقيقيين، فخلقت منهم أعداء حينا، أو وضعتهم تحت المراقبة حينا آخر.

وقال مرة بحزن شديد:

– إن الفساد ينتشر كالوباء، لا نملك إلا التحذير، وحتى ذلك لا يتيسر لنا إلا فيما ندر.

يأخذ الدكتور عزمى على ثورة يوليو ما ينفى عنه صفة التبعية والانقياد الاعمى، ويضعه الراوى فى خانة الشيوعيين المتجددين. ولا يخفى عزمى حزنه عند القبض على الشيوعيين، وساوره قلق أشبه بتأنيب الضمير، ولكنه قال:

– إنه التعصب ، والإيمان بالكتب أكثر من الواقع.

وكم اغتبط لدى الإفراج عنهم، واغتبط أكثر عندما علم بأنهم تبرأوا من الحزب الشيوعى، وعقدوا العزم على التعاون مع الثورة، وقال:

– هاهم يرجعون إلى موقفي الذى اتهمت به عندهم[1].

هل يلعب "الشيوعي المتجدد" عزمي شاكر دور زرقاء اليمامة في تاريخ الحركة الشيوعية المصرية؟. هل رأى قبلهم أم أنه آثر السلامة والمسالمة؟. إذا كان الدكتور عزمي يأخذ على الشيوعيين التقليديين تعصبهم وتعلقهم بالكتب والنظريات على حساب الواقع، فإن شيوعياً مخلصاً محترماً مثل الدكتور كامل رمزى يتعامل مع المسألة بمنطق مغاير. فبعد الإفراج عن الدكتور كامل وتعاونه مع الثورة في إخلاص ينقصه الأيمان، يشير الراوى إلى عزمي شاكر قائلاً:

– ما أشبه موقفك بالموقف الذى اتخذه هذا الرجل من بادئ الأمر..

يضحك الدكتور كامل، ولكنه يقول بحدة:

– لقد سلم قبل المعركة، أما نحن فسلمنا بالأمر الواقع بعد أن أثبتت المعركة عقمها.

ويعلق الراوى:

– لعله كان أبعد نظرا.

(1) يقع نجيب محفوظ هنا فى خطأ بنائى فادح يتعلق بالسياق الزمنى للرواية، فقد أعتقل الشيوعيون قبل أن تبدأ علاقة الراوى مع الدكتور عزمى، سنة 1960 كما يحدد، والقرارات الاشتراكية أعلنت أثناء اعتقال الشيوعيين وليس قبل ذلك كما نفهم من السياق.
لمزيد من التفاصيل عن الحركة الشيوعية المصرية وموقفها من ثورة يوليو خلال الفترة، راجع: د. رفعت السعيد، تاريخ الحركة الشيوعية المصرية1957–1965، شركة الأمل، ط1، القاهرة،1986.

فلا يملك الدكتور إلا أن يقول بدوره:

- اسمح لى فى هذه الحالة أن ألعن بعد النظر!

قد تكون النتيجة واحدة، ولكن الطريق إليها مختلف. ووفق هذه القاعدة، فإن عزمى شاكر يختلف عن الذين خاضوا التجربة واكتووا بنيران المعارضة قبل أن يضطروا إلى التعايش مع ثورة يوليو!.

وعلى الرغم من حماس الدكتور عزمى للثورة وتعاطفه مع الشيوعيين، حزنا صادقا عند الاعتقال وغبطة من القلب بعد الافراج، فإن نفسه لا تخلو من الامتعاض لأن المفرج عنهم تولوا المناصب الرئيسة فى الدولة والصحافة، تاركين إياه - نسبياً - فى القاع. وتتجلى المرارة فى قوله للراوى:

- أخشى أن يكتشف الكتاب يوماً أن اللامعقول أسلوب مناسب لمعالجة العقائد أيضاً!.

ولعل الامتعاض الذى أصابه هو ما دفعه إلى العودة من جديد إلى أحضان الجامعة، وهى العودة التى رفضها من قبل عندما عُرضت عليه بعد تعاونه مع الثورة وحماسه لها!.

ويتوقف الراوى طويلاً أمام رد فعل الدكتور عزمى على هزيمة 1967. لقد أصابه ما أصاب الجميع، وتزلزل كيانه من وقع الصدمة، ولكنه كان من أوائل الذين تماسكوا: ففى أكتوبر من السنة نفسها نشر مقالة المشهور الذى حلل به الهزيمة، فاعتبرها درساً، وحذر من الاستسلام لطغيان النقد واحتقار الذات وتعذيبها وفقدان الثقة بالنفس، وأكد فى النهاية حقيقة ما

زال يؤمن بها وهى أن الثورة هى الأرض الحقيقية المتنازع عليها، لا سيناء ولا القدس، وأنها هى التى يجب أن تبقى وأن تستمر.

ولا يقنع الدكتور بالمقال، ففى الأعوام التالية عكف على تأليف كتابه " الرائع" – بلغة الراوى – "من الهزيمة نبدأ": وهو دستور لحياة جديدة تشق طريقها نافضة عن نفسها ركام الأتربة.

يتحمس الراوى لكتاب صديقه الموصوف بالروعة، ولكن الحماس يغيب عن آخرين لا يشاركونه الرأى.

المفكر سالم جبر يغضب من إعجاب الراوى بكتاب الدكتور عزمى، ويرى أن الدكتور ليس إلا معادلا موضوعياً مدنياً!.

ويسخر عجلان ثابت من الكتاب، ويتلاعب بعنوانه فيسميه متهكما فى اتهام: "من الانتهازية نبدأ"!.

ولكن هذه الاعتراضات والسخريات لا تؤثر فى حماس الراوى للدكتور عزمى الذى يعمل بهمة مذهلة، وهو لا يخفى أن إعجابه مرتبط بصدق الرجل وتوافقه مع نفسه: هو من القلة التى لم تصب بانقسام الشخصية، فهو هو سواء تكلم على الملأ أم فى مجالسه الشخصية.

الفصل الخامس

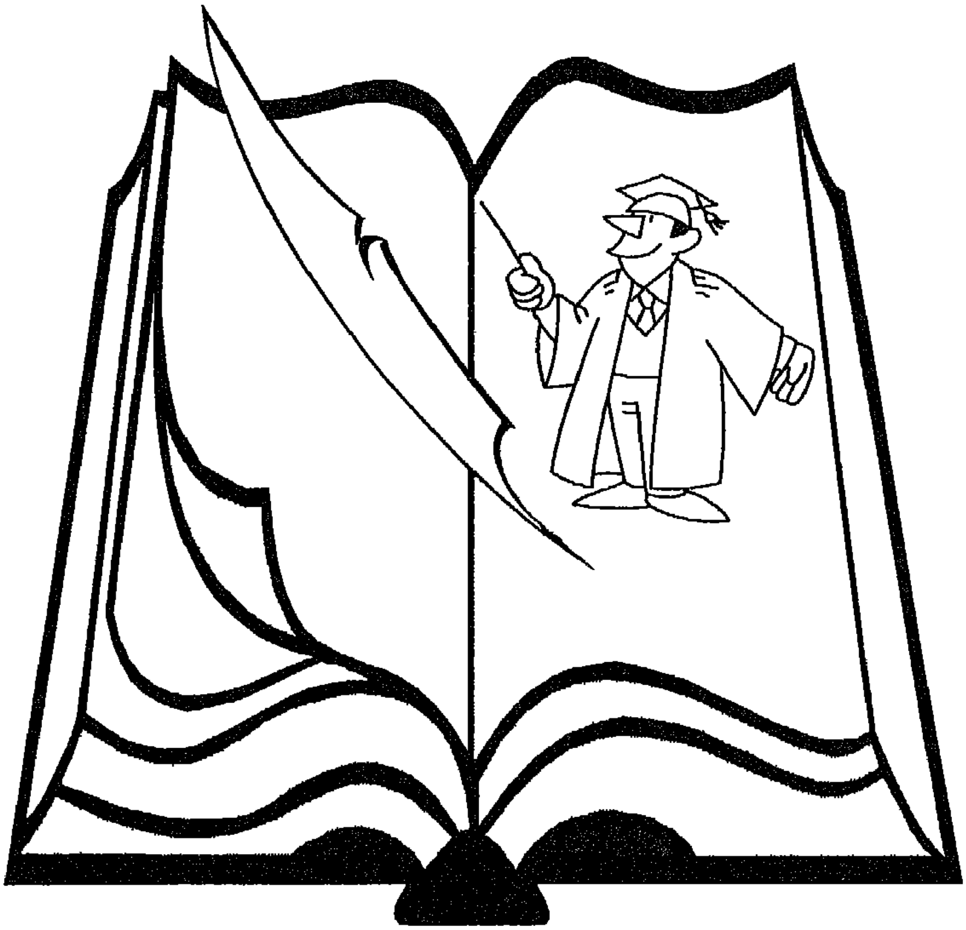

كامل رمزى

فـى معـرض الحديـث عـن رضـا حمـادة، يقـول الـراوى: غـير أن إعجابى الأول به إنما يرجع إلى شخصيته الأخلاقية قبـل كـل شئ، وقليلـون جداً ممن عرفتهم يماثلونه فى ذلك مثل كامل رمزى وسرور عبد الباقى.

رضا حمادة وفدى ليبرالى، وسرور عبد البـاقى تقليـدى محـافظ بـلا انتماء سياسى محدد، وكامل رمـزى ماركسـى. الأول رجـل قـانون، والثـانى طبيب وأستاذ فى كلية الطب، والثالث أستاذ جامعى متخصص فى الاقتصـاد. الشخصية الأخلاقية هى المشترك الذى يتجاوز الانتماءات السياسية والمهنيـة وهى التى تجمع ما يبدو للوهلة الأولى أنه مختلف متنافر.

كامل رمزى ماركسى أخلاقى يحظى بإعجاب الراوى واحترامه على الرغم من تأخر التعارف بينهما مقارنة برفيقى العمر رضا و سرور: تعارفنـا عام 1965 فى بيت الدكتور عزمى شاكر. كـان حديـث عـهد بالحريـة بعـد أن قضى فى الاعتقال خمسة أعوام . وهو أسمر نحيـل طويـل أصلـع كبـير الـرأس

صغير العينين براقهما فى الخمسين من عمره. دكتور فى الاقتصاد وكان أستاذا بكلية التجارة حتى تاريخ القبض عليه. قلت له:

– قرأت كتابك عن المذاهب الاقتصادية وأشهد بأنه أمتعنى بقدر ما أفادنى.

فشكرنى وقال:

– كانت الحياة الجامعية تناسبنى جداً!

وقال الدكتور عزمى شاكر:

– أتهم خطأ بالنشاط العملى أما الحقيقة فهى أنه أستاذ مفكر لا يجاوز نشاطه مجال التفكير والتأليف.

وفى نفس الأسبوع الذى تعارفنا فيه ولى منصباً كبيراً، وقال لى عزمى شاكر للمناسبة:

– إنه مثال فى العلم والحزم والنزاهة.

خمس سنوات فحسب هى التى تجمع بين الراوى وكامل رمزى، من بداية التعارف سنة 1965 إلى نهاية الإطار الزمنى الذى تدور فيه أحداث "المرايا" سنة 1970، ولكنها سنوات كافية لتشكيل صورة متكاملة عن شخصية مفتاحها الأساس يتمثل فى سيطرة النزعة الأخلاقية التى تتجلى فى الإخلاص للعلم والتفانى فى العمل والالتزام الصارم بالنزاهة. الدكتور كامل رمزى ماركسى "نظرى" لا يميل إلى النشاط العملى، وأستاذ جامعى يحب مهنته ويقدم إنتاجا علمياً مقروءاً متميزاً، وفى سيرة حياته ما يقدم النموذج المثال للعالم الحازم النزيه.

والدكتور كامل ليس شخصا محبوباً بقدر ما هو شخص محترم، وبين الحب والاحترام فارق كبير لا يمكن إغفاله. إنه ينال احترام الأصدقاء سالم جبر وزهير كامل ورضا حمادة وقدرى رزق وصادق عبد الحميد، وهم مختلفون كل الاختلاف، ولكن الراوى يلاحظ أن أحدا من هؤلاء الأصدقاء لا يغالى فى حبه.

ربما يكمن السر فى طبيعته التى تفتقد المرونة ولا تخلو من الحدة وتميل إلى التزمت وتتسم بصراحة جافة وصدق موجع: وله قدرة فائقة فى المناقشة والجدل. ويتكلم إذا تكلم بثقة وصراحة وقوة. ولا يؤمن فى شئ بالحلول الوسطى، ولا بالمجاملة، ولا بالتسامح، بل يؤمن برأيه لحد التعصب، ولا يطيق المعارضة فهى تثير أعصابه وتخرجه عن الاتزان اللائق بمركزه فسرعان ما يهدر غاضباً بالحجج والأدلة وكأنه يخوض معركة حامية. وهو يشبه عبد الوهاب إسماعيل فى تعصبه على تناقضهما فى الأسلوب، حتى قلت مرة للدكتور عزمى شاكر:

- إنه عالم ولكنه ذو عقلية دينية!

فقال :

- إنه متعصب بلا شك، ومشتعل فى مناقشته، ولكن أعصابه لم تفسد بهذه الصورة إلا بعد تجربة الاعتقال.

كيف يحظى بالحب رجل صريح بعيد عن المجاملة والتسامح وأقرب فى مناقشاته إلى التعصب والعصبية؟!. عبد الوهاب إسماعيل[1] - فى

---

(1) الشخصية - كما يقدمها نجيب محفوظ - قريبة فى ملامحها وسماتها من المفكر الإسلامى المعروف سيد قطب، وعبد الوهاب إسماعيل ينال احترام الراوى وتقديره - مثل كامل رمزى - ولكنه موصوف بالتعصب الدينى.

مرحلته الثانية – ينتمى إلى الإخوان المسلمين وصاحب نظرية فى تكفير المجتمع ومعاداة العلم والعقل، وكامل رمزى ماركسى ينتمى إلى الحركة الشيوعية المصرية، ولكنهما يتفقان ويتشابهان فى التعصب الذى يؤدى إلى نفور الآخرين وإن لم يقض على الاحترام.

يقول عنه رضا حمادة:

– لقد تشفعت به فى نقل موظف فأعطانى درساً قاسياً فى فساد الوساطة، ومع أننى استأت فى نفسى إلا أننى ازددت إعجابا به..

ويضيف عزمى شاكر:

– بل أوصاه وزيره بموظف فاعتذر عن عدم التنفيذ حرصاً على مبادئ العدالة!.

ولا يملك الراوى عند هذه الواقعة إلا أن يتدخل – ونجيب محفوظ على دراية واسعة بعالم الموظفين[2] ومعنى توصية وزير – ليتساءل فى دهشة:

– وزيره نفسه؟!

– أجل، إنه خلق صلب غير قابل للثنى، ولذلك أشك كثيراً فى إمكانية بقائه فى منصبه.

فسأل رضا حمادة:

– هل يستغنون عن موظف لاستقامته؟

(2) عن تأثير الوظيفة على العالم الفنى لنجيب محفوظ، راجع دراستنا "صورة الموظف فى روايات نجيب محفوظ". طبعة محدودة، مكتبة السلام، المنيا، 1990.

ويرد الدكتور عزمى:

– إن الأسباب التى تدعو للاستغناء عن موظف لاستقامته اكثر من الأسباب التى تدعو للاستغناء عنه لانحرافه!.

ويعترف كامل رمزى نفسه بأن أحدا فى إدارته لا يحبه بدءا من الفراش حتى الوزير:

– لا أستطيع أن اهتم بعواطف الناس والمصلحة العامة معاً، إن منصبى يحتاج لألعبان لا لموظف أمين.

ثم قال بازدراء:

– نحن شعب المصاطب والمجاملات والمساومات.

صداقة الدكتور كامل مع رضا حمادة لا تقود إلى الوساطة البغيضة، والمنصب الوزارى لا يعنى إهدار العدالة وتكافؤ الفرص. قد يكون رضا قادراً على استيعاب الدرس الذى يقدمه الصديق الجاد الملتزم، ولكن المجتمع لا يعمل وفق قوانين أمثال رضا!. لا ينال الحب إلا من يتقن أسلوب المصاطب ويجامل ويساوم، ولذلك يصح ما توقعه الدكتور عزمى ولا يعمر كامل رمزى فى وظيفته الكبيرة: باشرها عاما واحداً حتى ضج جميع أهل الأرض من صلابته ونزاهته، وإذا بجرائد الصباح تنشر خبر نقله إلى مؤسسة صحفية. ومن عجب أن عمت الشماتة به أكثرية الناس.

أكثرية الناس هم الذين يمثلون المجتمع، وهؤلاء الشامتون يعرفون نبل ونزاهة كامل رمزى، ولكنهم – فى الوقت نفسه – يضيقون بنبله ونزاهته. كامل وأمثاله من الأخلاقيين يفضحون – بقوة أخلاقهم – المتخاذلين الضعفاء: لذلك لم أسمع رثاء له إلا بين خاصة أصدقائه. وأما هو فقد غضب وفاضت نفسه

مرارة وخيل إليه أن نواميس الطبيعة تقلقلت وشذت عن مداراتها. ولكن ذلك لم يمنعه من مزاولة عمله الجديد بنفس الهمة والنزاهة والقوة السابقة، بل إنه وجد فراغاً لم يكن يجده فاستأنف نشاطه العلمى، وشرع فى وضع قاموسه السياسى. وكان ومازال شعلة من النشاط المتواصل، ونورا يطارد ظلمات اليأس.

الغضب شعور إنسانى، والمرارة مبررة، ولكن جوهر الشخصية لا يتغير فتستمر الهمة والإيمان بقداسة العمل كواجب لا يمكن التخلى عنه.

ولأن العمل قيمة مقدسة، فإن الخلافات الأيدلوجية بين الدكتور كامل وثورة يوليو – وهى التى أعتقل بسببها خمسة أعوام – لا تحول بينه وبين التعاون مع الثورة فى إخلاص لا يتناقص مع غياب الإيمان الكامل بها: خلقت لأعبد العمل وأخلص له.

وفى حياة الدكتور كامل الشخصية ما يتوافق وينسجم مع أفكاره وسلوكه العام. زوجته دكتورة فى الاقتصاد ومدرسة بكلية التجارة ومثال مشرف للمرأة المصرية، وعندما يزداد اختلاط الراوى به فإنه يتعرف على أسلوبه فى الحياة: فهو يميل إلى التقشف فى ملبسه، و طعامه الذى يشبه الرجيم، وإلى ذلك فهو لا يدخن ولا يذوق الخمر. وهو يعترف للراوى بأنه لم يعرف المرأة قبل الزواج، وقاوم جميع المغريات وهو طالب فى البعثة!.

وعلى الرغم من إيمان الدكتور بالمادية الجدلية، فإنه يصوم رمضان متأثراً بتربية أبيه العامل البسيط المتدين، وله وجهة نظر فى الدين تختلف عن رؤية الشيوعيين التقليدية: العظمة الحقيقية للدين لا تتجلى إلا عندما تعتبره لا دينا! عالم ذو عقلية دينية، ومادى متقشف ذو سلوك مثالى؛ هذا هو الدكتور كامل رمزى الذى يقدم نموذجاً لأستاذ الجامعة الجاد المحترم غير المحبوب.

الفصل السادس

ماهر عبد الكريم

كان الدكتور ماهر عبد الكريم أستاذاً مساعدا بكلية الآداب عندما التحق بها الراوى عام 1930، ومنذ البدء يتميز الدكتور ماهر عن غيره من الأساتذة: يتمتع بسمعة علمية وأخلاقية وإنسانية كأنها عبير المسك. ولم أعرف أستاذا فتن طلبته بسجاياه الروحية وسماحة وجهه مثله. وهو سليل أسرة عريقة، عُرفت بثرائها كما عرفت فى التاريخ الحديث بولائها للحزب الوطنى، وعد هو بالتبعية من الموالين للحزب، ولكن ذلك لم ينل من حبنا له، والحق أنه لم يعلن عن ميل سياسى قط، ولم يقع فى رذيلة التعصب أبدا، ولم ينطق فى حديث عن هوى أو تحيز أو حقد، ووهب نفسه للعلم والخير.

علم وأخلاق وإنسانية، شعبية جارفة فى الوسط الطلابى الذى لا يمنح الحب بسهولة، أسرة عريقة ثرية ذات اتجاه سياسى معروف، ابتعاد محمود عن التعصب وضيق الأفق؛ هذا هو الدكتور ماهر عبد الكريم الذى يقدمه نجيب محفوظ كنموذج أرقى وأسمى لأستاذ الجامعة.

ولعله مما يؤكد مكانة الدكتور ماهر الراسخة فى قلوب تلاميذه أن انتماءه الموروث للحزب الوطنى، وهو الحزب الذى قاد الحركة الوطنية

المصرية قبل أن يزيحه الوفد فى أعقاب ثورة 1919، لم يهز مكانتـه أو يشـوه صورته فى مرحلة تاريخية كان التعصب السياسى فيها طاغياً، والوفد هو المهيمن على عقول ووجدان الأغلبية العظمى فى الشارع المصرى والجامعة[1] على حد سواء. يقول الراوى إن انتماء أستاذهم للحزب الوطنى لم ينل من حبهم له، وكأن الأصل أن يؤثر مثل هذا الانتماء فيسلب الحب والتقدير! وفى صالون الدكتور ماهر ذى النزعة الثقافية، كان تلاميذه يتجنبون الحديث فى السياسة لكونه من المنتمين للحزب الوطنى بحكم أسرته ونشأته على حين أن تلاميذه جميعاً كانوا من شباب الوفد.

التلاميذ "جميعاً" من الوفديين، والدكتور- لأسباب أسرية قبل أن تكون سياسية - محسوب على الحزب الوطنى، ولكن الاختلاف السياسى لا يفسد المودة العميقة التى يكنها له تلاميذه وفى مقدمتهم الراوى الذى يبدو منجذباً ودرويشاً وعاطفياً بلا حدود: كرمه كان يلتهم ثروته، فلم يصد محتاجا قط، وكان يجود بالإحسان سراً كأنما يتستر على عيب، وكان مثلا لسعة الصدر، هكذا كان فى مناقشاته العلمية والعامة، بل والسياسية إذا جر إليها جرا، وكأن أسارير وجهه لم تهيأ أصلا إلا للتعبير عن التأمل أو الترحيب أو البشاشة، وغير قابلة للإفصاح عن الحدة أو الغضب. وكان قصره القديم بالمنيرة ملتقى أهل العلم والأدب والفكر، وبه متسع دائما لطلبته فيقدمهم إلى الكبار ويعاملهم معاملة الأنداد، و ما أكثر الذين عرفتهم فى صالونه من رجال الفكر.

---

(1) يقول عجلان ثابت فى "المرايا": لا تحترم طالباً غير مهتم بالسياسة، ولا تحترم مهتما بالسياسة إن لم يكن وفديا، ولا تحترم وفدياً إن لم يكن فقيراً. لمزيد من التفاصيل عن شعبية الوفد وتغلغله فى الحركة الطلابية، راجع دراستنا: "الرؤية الوفدية فى أدب نجيب محفوظ".

ليس حباً عاديا ذلك الذى يكنه الراوى للدكتور ماهر عبد الكريم، فالأمر يتحول إلى نوع من العشق الذى تعبر عنه لغة موغلة فى العذوبة والشعرية. ولا يبالغ الراوى عندما يتحدث عن قيمة وأهمية الصالون الثقافى الذى يمثل محطة رئيسة فى حياته وحيوات غيره، ففى الصالون تدور أخطر الأحاديث السياسية والثقافية والاجتماعية التى تعبر عن تفاعلات الحياة المصرية عبر ما يزيد عن ثلث قرن من الزمان، وفى الصالون أيضا يتعرف الراوى على كثير من شخوص الرواية كما ينص على ذلك فى معرض الحديث عنهم.

تعرف الراوى – أثناء دراسته الجامعية – بالمفكر سالم جبر فى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم بالمنيرة، وعرف الناقد الأدبى عبد الوهاب إسماعيل – الزعيم الإخوانى فيما بعد – فى الصالون نفسه أثناء الحرب العالمية الثانية، وبدأت علاقته مع الدكتور اليسارى عزمى شاكر فى الصالون أيضا عام 1960.

مفكر أقرب إلى الفوضوية، وآخر تنتهى حياته مع الإخوان المسلمين، وثالث ينتمى إلى اليسار. كلهم فى الصالون الذى تحول إلى كعبة ومقصد لأهل الفكر فى مصر، ومن هنا كثرة المترددين عليه وحرص البعيدين عنه على الانتساب إليه. من هؤلاء الدكتور صادق عبد الحميد: وبتحريض حار من ناحيته قدمته إلى صالون الدكتور ماهر عبد الكريم.

وفى هذا الإطار يمكن تفسير الخجل والحرج الذى يمنع من يشعرون بارتكاب الخطأ من التردد على "الكعبة" التى تجمع الصفوة والشباب معاً.

الدكتور إبراهيم عقل يمتنع عن الحضور إلى الصالون بعد وثوبه الانتهازى إلى الوظيفة الجامعية الكبيرة، واقتصرت مقابلاته لصديقه على الزيارات الخاصة.

وبعد انقلابه الانتهازى المفاجئ وتحوله المذهل من الوفد إلى ضباط يوليو، يتجنب الدكتور زهير كامل التردد على الصالون.

يقدم الدكتور ماهر عبد الكريم من خلال صالونه الثقافى المزدهر نموذجاً إيجابيا فعالا لدور الأستاذ الجامعى فى إثراء الحركة الثقافية وتشجيع تلاميذه على النمو والاستقلال الفكرى. وعلى الرغم من سماحة الدكتور وترحيبه بكافة الاتجاهات الفكرية والسياسية المتنافرة، فإنه يعلى من شأن الجانب الأخلاقى فلا يفتح بيته للمشبوهين ومن تحيطهم الأقاويل والشائعات. وكم تألم الراوى عندما لم يجد من أستاذه استعدادا للترحيب بعجلان ثابت:

– يقال إنه شخص ..

وابتسم ابتسامة استغنى بها عن تسجيل وصف لا يرتاح إليه ذوقه الرفيع!.

صالون الدكتور ماهر "كعبة" يحج إليها الجميع، وقد يغادر الدكتور قصره فى المنيرة إلى فيللا حديثة فى مصر الجديدة، ولكن الصالون لا يتبدل ويستمر فى أداء دوره: وقد باع قصره القديم بالمنيرة واشترى فيللا جميلة بمصر الجديدة ما زالت حتى اليوم تستقبل أهل الفكر والرأى.

لا يقتصر الإعجاب بالدكتور ماهر على الراوى وحده، فالدكتور إبراهيم عقل يقول عنه: لو كان جميع الأغنياء مثل ماهر عبد الكريم، لقررت أن المثَل الأعلى للإنسان أن يكون غنياً!

وطنطاوى إسماعيل، الأخلاقى المتزمت المتشدد، يرى أنه رجل عظيم.

ولكن المدح يتداخل مع الذم والرغبة الخبيثة فى النقد والانتقاص عند سالم جبر وعباس فوزى، وتقييم ما يقولانه والحكم على مدى موضوعيته يتطلب تعريفاً موجزا بهما.

سالم جبر من الدعاة المتحمسين للحضارة والاستقلال الاقتصادى وتحرير المرأة، ولكنه متقلب سياسياً ومولع بالمعارضة الدائمة. يقول عنه الراوى بعد استعراض بعض تناقضاته: واقتنعت أخيرا بأنه شخص غريب خلق ليكون معارضاً، حبا فى المعارضة قبل كل شئ، فإذا كانت الدولة إقطاعية فهو شيوعى، وإن تكن يسارية فهو محافظ.

وكثير من زملاء ومعارف سالم جبر يتخذون تجاهه موقفا سلبياً.

إبراهيم عقل يحذر تلميذه الراوى من فلسفة سالم الكاذبة، وعباس فوزى يصفه بالفجور، أما رضا حمادة فيوقن بجنونه ويعتقد أنه لا يوجد إنسان مثله يجمع الكل على بغضه!.

عباس فوزى عالم كبير متبحر فى التراث، وهو يحفظه كله شعرا ونثراً عن ظهر قلب!. ولكنه – مثل سالم جبر– كثير التناقضات ومولع بانتقاص الآخرين والحط من شأنهم،ويبادله الآخرون مشاعره!. يقول عنه طنطاوى إسماعيل إنه ذو علم وبلا خلق، ويزعم أعداؤه أن والده كان ترابيا وأمه غسالة، ورموه كذلك بالشذوذ الجنسى!.

سالم جبر وعباس فوزى – وهذا حالهما – ليسا من الموثوق فيهما وفى قدرتهما على التقييم الموضوعى المنصف للآخرين، وما يقولانه عن الدكتور ماهر عبد الكريم يحتاج إلى مراجعة وتمحيص وتأمل.

سالم جبر يحب الدكتور ماهر ويعجب به، ولكنه يراه من طبقة النبلاء: لم يعرف الفقر، ويرى الشعب من فوق، وله رؤيته الخاصة وهى رغم جاذبيتها ونقائها غريبة عنا كأنها لغة كوكب آخر.

والساخر اللاذع عباس فوزى يمدح الدكتور ماهر بكلمات ظاهرها

الرحمة وباطنها العذاب، وآراؤه خبيثة تحتمل التأويل!.

يقول عنه إنه وجيه نبيل، مملوك من نسل مماليك!.

ويقول أيضاً: فى مصر لا يجتمع النبل والثورة والعلم، ولكن النبيل الغنى متعالم، يستغل ذكاء الفقراء، يجمعون له البحث ويقترحون عليه الأفكار، أما هو فيصغى بوقار ويوقع بإمضائه!.

ومرة أخرى يقول للراوى: أستاذك ذواقة لكل طعام جيد، يلتهم فى اليوم ما يكفى لغذاء لواء من الجيش، خبرنى يا عزيزى متى يفرغ من الهضم ليتفرغ للتفكير والبحث؟!.

سالم جبر يتهم الدكتور ماهر بالانعزالية والاستغراب والتعالى، وليس فى سلوك الدكتور ما يؤكد الاتهام الذى يبدو مرسلا بلا دليل. أما عباس فوزى فيوحى قوله الأول أن ماهر عبد الكريم شاذ جنسياً " مملوك من نسل مماليك"، ويقود قولاه الآخران إلى اتهام الدكتور بالاعتماد على جهود غيره فى التأليف والإنتاج العلمى. تهمة الشذوذ مرسلة وقد أُتهم بها عباس نفسه، أما علم الدكتور فقد عاينه تلاميذه بشكل مباشر وعرفوا ما يتمتع به أستاذهم من دقة ووضوح وغزارة فى العلم.

اتهامات متهافتة لا تصمد للمقارنة بالفضائل الكثيرة التى يستحق بسببها الدكتور آيات المدح والثناء، والذى يستدعى التوقف هو ما يتعلق برؤية الدكتور ماهر عبد الكريم السياسة و مواقفه العملية المترتبة على هذه الرؤية.

ينتمى الدكتور ماهر إلى الحزب الوطنى، وإن لم يعلن عن ميل سياسى قط، أما تلاميذه – ومنهم الراوى – فينتمون "جميعاً" إلى حزب الوفد.

والحزب الوطنى فى عالم نجيب محفوظ لا يحظى بالاحترام والتقدير إلا فى المرحلة السابقة لثورة 1919، وبعدها يتحول إلى واحد من أحزاب الأقلية المكروهة من الوفديين والمتهمة بعديد من النقائص والعيوب.

عدلى كريم – المفكر التقدمى– يصف الحزب الوطنى بأنه تركى دينى رجعى!" السكرية –107".

ورياض قلدس – فى معرض حديثه عن الوفد الذى ينتمى إليه – يرى أنه ليس حزباً دينيا تركياً كالحزب الوطنى." نفسه–175"

وبينما الوفد هو حزب الوحدة الوطنية، كان الشيخ عبد العزيز جاويش – أحد قيادات ورموز الحزب الوطنى – يقترح فى الماضى أن يصنع المسلمون أحذيتهم من جلود المسيحيين[2]." نفسه–178"

---

(2) نشر الشيخ عبد العزيز جاويش (1876–1929) مقاله "الإسلام غريب فى بلاده" فى جريدة "اللواء"– جريدة الحزب الوطنى– فى 17 من يونيه سنة 1908، وجاء مقاله العنيف في سياق مناخ متوتر اشتعل فيه الصراع واشتد الخلاف بين المسلمين والمسيحيين. وقبل أن ينشر الشيخ جاويش مقاله بيومين كتب فؤاد كامل طاعناً فى الدين الإسلامى: "إن الاعتزاز بالقوة والاستهتار بالضعيف، هما الحجران اللذان بنى عليهما، ما يسمونه مجد الإسلام"!!

وفى مقال الشيخ جاويش الذى حوى العبارة العنيفة التى يستشهد بها رياض قلدس، ما ينم عن اعتزاز الرجل بالوحدة الوطنية وحرصه على العلاقة الودية بين المسلمين والمسيحيين فى مصر.

لمزيد من التفاصيل، راجع:

- أنور الجندى: عبد العزيز جاويش، الدار القومية للطباعة والنشر، سلسلة أعلام العرب، العدد 44، القاهرة،1965.
- فتحى رضوان: مشهورون منسيون، مؤسسة أخبار اليوم، كتاب اليوم، العدد 27، القاهرة، 1970.

ويتحدث عامر وجدى عن القوى السياسية التى عاصرها، ومنها الحزب الوطنى بحماساته وحماقاته."ميرامار-23"

ويصف نجيب محفوظ أحد رجال الحزب الوطنى فى طوره الثانى - طنطاوى إسماعيل- فيقول إن وطنيته تبلغ درجة التعصب الأعمى."المرايا- 222"

وهكذا يظهر الحزب الوطنى فى صورة سلبية بعد نجاح ثورة1919 التى قضت على الكثير من شعبية الحزب الذى قاد الحركة الوطنية قبلها.

مكانة الدكتور ماهر فى قلوب تلاميذه الوفديين تحول بينهم وبين الحديث فى السياسة، ولكنهم لا يتخلون أبدا عن رؤيتهم التى تؤثر فى تقييمهم للآخرين من أصحاب الانتماءات السياسية المختلفة. ولقد عاش الدكتور ماهر حياته كلها بعيداً عن الشبهات، ولكن الراوى - مع حبه - يأبى إلا أن يشير إلى شائعة تتعلق بأستاذه الأثير فى فترة القلاقل بعد نهاية الحرب العالمية الثانية: قيل إنه رفع خطابا سريا إلى الملك فاروق يحذر من مغبة التمرد الذى يجتاح الشباب، مفصلاً أسبابه وبواعثه ومقترحا العلاج له. سمعنا ذلك فيما نسمع من شائعات فى المقاهى، حتى اليوم لم أتأكد من صدق الشائعة، وكل ما قيل عنها كان ضرباً من التخمين ونتيجة للأهواء السياسية المتنازعة، فقال وفديون إنه اقترح على الملك حل الأحزاب وإقامة ديكتاتورية صالحة تعجل بالإصلاح وتربى الشباب تربية دينية علمية، وقال المتطرفون من تلاميذ سالم جبر إنها دعوة لثورة مضادة يراد بها تفادى الثورة الحقيقية.

ويتدخل الراوى ليدلى برأيه المختلف عن الوفديين الذين لا يعرفون أستاذه وعن المتطرفين الذين يرددون أفكار سالم جبر: أما أنا فساءتنى

الرسالة - مهما كان مضمونها - باعتبارها انتهاكا لحرية الدستور واستهتارا بسلطة الشعب، ووجدتنى فى حرج شديد بين إجلالى لأستاذى وبين موقفى السياسى الواضح، ووجدت حرجاً أكثر فى مفاتحته بالموضوع، غير أن جعفر خليل وجد الجرأة لمفاتحته.

الأمر كله مجرد شائعة انطلقت فى مرحلة متقلبة تروج فيها الشائعات والأكاذيب، وفى مناخ سياسى ملئ بالقلاقل تكتسب الأقاويل تأثيرا وتحدث دويا لا علاقة له بصدق وموضوعية ما يقال. يتعامل الجميع مع الشائعة كحقيقة، ويتبارى الوفديون وغيرهم فى تحليل "الخطاب السرى" والوصول بتحليلاتهم إلى أحكام قاسية بلا سند من المنطق. وعلى الرغم من أن الراوى يعترف بأنه لم يتأكد من صدق الشائعة، وعلى الرغم من معرفته الوثيقة بأستاذه وأخلاقياته، فإنه - من منطلق عقيدته الوفدية الطاغية - يتعامل مع الرسالة كحقيقة تثير غضبه لأنها تمثل انتهاكا للدستور واستهتاراً بالشعب!.

ما الذى حدث عندما وجد جعفر خليل فى نفسه الجرأة على مصارحة أستاذه بكل ما يقال ويشاع؟. أنصت الدكتور فى هدوء وابتسم، ثم سأله:

- صدقت ما يشاع وما يقال؟

فتراجع جعفر خليل قائلا:

- كلا

فاكتفى الأستاذ بقوله:

- عظيم!

المناخ المشحون بالتوتر يدفع الراوى وصديقه جعفر إلى التصديق

والشك، والثقة المطلقة فى الأستاذ الجليل تؤدى إلى التراجع، وتنتهى مشكلة ليس لها وجود!.

الدكتور ماهر عبد الكريم ليس وفدياً شعبياً، وأصوله الاجتماعية تتوافق مع شخصيته الهادئة للوصول إلى بناء فكرى عاقل متزن يتسم بدرجة عالية من الاعتدال الذى يتجلى فى تعليقاته ورؤاه ومقولاته التى تصدر عنه فى عديد من المواقف.

ثقته فى الشعب ليست مطلقه كما هو الحال عند الوفديين المتحمسين، وفى حوار سياسى ساخن عن الحياة الدستورية والحزبية بعد ثورة 1919، يتدخل بهدوء ويقول فى صوت ناعم هامس: شعبنا مثل الوحش المذكور فى بعض الأساطير الشعبية يستيقظ أياما ثم ينام أجيالا.

وهو يعادى الأفكار اليسارية ويرفض التجربة الاشتراكية السوفيتية التى يتحمس لها سالم جبر: إنك يا أستاذ تحلم بثورة كالتى قامت فى روسيا منذ أربعة عشر عاما، وهى تتكشف كل يوم عن مضاعفات خطيرة..

واعتقد الدكتور ماهر دائما أن الإسلام يكفل للناس عدالة اجتماعية شاملة كما اعتقد أن نشر التعليم يحقق الغاية نفسها بطريقة أخرى.

مفكر معتدل يزن أقواله بميزان دقيق ينأى به عن التطرف والانفعال، وهو لذلك بعيد عن الوفد وشعاراته الشعبية الحماسية بعده عن ثورة 23يوليو وشعاراتها وممارساتها.

موقف الدكتور ماهر من ثورة يوليو يؤكد أن الرجل يستحق ثناء تلاميذه وحب عارفيه. إنه لا يتوافق مع أفكار الثورة وقراراتها، ولكنه لا

يخلط بين الذاتى والموضوعى فى تعامله معها. وعلى الرغم من أن بعض إجراءات الثورة قد أصابته فى الصميم وألحقت به ضرراً فادحاً لا يستهان به، فإن الراوى يشهد له بالاعتدال والإنصاف: ولا أظن أن إقطاعيا تلقى الضربة التاريخية فى مثل هدوئه، تلك الضربة التى نزعت من يده عشرة آلاف من الأفدنة.

لم يعلن الرجل ولاءه للثورة، لبعده عن مجالات الإعلام ولرغبته عن إقحام نفسه فيها بطريقة غير طبيعية أن يرمى بشىء مما يمس الكرامة، ولكنه لا يتردد عن إعلان الولاء - الذى لم يطالبه به أحد - فى مجالسه الخاصة. يقول لمجالسيه: إنى مقتنع بما يقع فهو أقل ما يمكن كى يصلح الوطن للحياة وتصلح الحياة له.

ولا يستشعر الراوى فى حديثه أو سلوكه أى اثر لمرارة، ولا معنى بعد ذلك للتنقيب فى الأفئدة فلا يُطالب مثله بأكثر من ذلك، أكثر من أن يواجه بحكمة ثورة تاريخية منطلقة أصلاً لاقتلاع طبقته، وأن يقنع نفسه بها فلسفياً كحركة تاريخية حتمية لا مفر منها طال الزمان أو قصر.

انتزعت ثورة يوليو من أسرة الدكتور ماهر آلاف الأفدنة، ولكنها لم تتعرض لشخصه بسوء. وفى ظل الثورة حصل الدكتور على حقه كاملا من التكريم والتقدير: عين عضوا فى المجلس الأعلى للآداب ونال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية كما نال وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى. إذن قدرت له الثورة مكانته العلمية وسمعته العطرة واستقامته العامة التى أبعدته عن الشبهات..

وتتجلى وطنية الدكتور فى أسمى صورها بعد هزيمة 1967، وهى الهزيمة التى فرح بها كل أعداء الثورة. ماهر عبد الكريم لم يفرح أو يشمت،

بل إنه يجد حرجا في الاحتفال الذى أقامه تلاميذه وأصدقاؤه له بمناسبة عيد ميلاده الخامس والسبعين الذى حل بعد عامين من الهزيمة: لا احتفال بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، فلا يجوز أن نحتفل ونحن نقاتل..

يبقى جانبان في شخصية الدكتور ماهر عبد الكريم يستحقان التوقف: الأول هو حياته الشخصية والعاطفية، والثاني هو خصوصية علاقته مع صديقه الدكتور إبراهيم عقل.

ليس في "المرايا" كلها ما يكشف عن الحياة الشخصية والعائلية للدكتور ماهر، فلا إشارة إلى زوجة أو أبناء. هذا الجانب مسكوت عنه تماما، ومرة واحدة يتطرق الراوى إلى حياة أستاذه العاطفية عندما يدعوه الدكتور- مع زميله جعفر خليل- لتولى أعمال الترجمة عن اللغة الإنجليزية – التى يجهلها – عند زيارة آنسة أمريكية له في قصره: أمها كلفتها بالبحث عن شخص في مصر يُدعى ماهر عبد الكريم كان طالباً بالسوربون في أعقاب الحرب العظمى..

ووضح لنا من تبادل الحديث أن أمها كانت زميلة لأستاذنا في باريس، وأنها كانت صديقته أيضا، وأنها انتهزت فرصة سفر ابنتها إلى مصر لتحملها تحياتها إليه(3).

---

(3) يشير نجيب محفوظ إلى أن الفتاة الأمريكية الزائرة في العشرين من عمرها، ولأن الحديث يدور في أوائل الثلاثينيات- قبل تخرج الراوى سنة1934- فإن الفتاة مولودة قبل بداية الحرب، وهو ما لا يستقيم مع زمالة أمها للدكتور ماهر في السوربون بعد نهاية الحرب!.

علاقة نسائية قديمة تستدعي أن يتحدث الراوى وزميله عن "جمال" أستاذهما الذى يؤهله لدور الفتى الأول فى الأفلام المصرية، ولكن الحوار بينهما لا يفضى إلى المزيد عن حياة الدكتور العاطفية وعلاقاته النسائية. الراوى يستدعي بيت شعر للفرزدق يذكره دائما بوجه أستاذه:

يغضى حياءً ويغضى من مهابته   فما يكلم إلا حين يبتسم

ثم يقول:

- ما أتصوره أبدا متخلياً عن وقاره، فإذا كان الوقار لباسا لغيره فهو منه بمثابة اللحم والعظم.

فى غيابه لا يتجاوزان الحد ولا يخوضان فى سيرته، فهما لا يتحدثان مثلا عن السر فى عدم زواجه، ولا يتطرقان إلى حياته الخاصة المجهولة!.

أما عن علاقة الدكتور ماهر بزميله وصديقه الدكتور إبراهيم عقل، المكروه من تلاميذه بحيث يمثل النقيض الكامل لماهر نفسه، فإنها حميمة ووثيقة. وليس أدل على قوتها ومتانتها من أن الدكتور إبراهيم عندما يتعرض لاتهام فى عقيدته بعد العودة من البعثة يتوسل بكثيرين - على رأسهم صديقه وزميله فى هيئة التدريس الدكتور ماهر عبد الكريم - لإخماد الفتنة واسترضاء مؤججيها.

يقف الدكتور ماهر إلى جوار صديقه دائما، وعندما يفقد الدكتور إبراهيم ولديه فى محنة قاسية، لا يتخلى عن ثباته وتجلده إلا بعد حضور

الدكتور ماهر: خفض جفنيه على دمع تفجر رغم إصراره على الظهور بمظهر الثبات والصبر.

وبعد "الدروشة" التى لاذ بها الدكتور عقل وأثارت الأقاويل والجدل، كان الدكتور ماهر يفند كل حجة يأنس منها هجوما ولو من بعيد على مسلك صديقه الحميم. وهو يدافع باستماتة عن ذكاء صديقه ويشيد بعقليته الفلسفية الشاملة، وإذ يبلغه الراوى بما يقوله ضابط البوليس السياسى المتقاعد أحمد قدرى عن " قتل" ابنى الدكتور عقل، يبدى من الدهشة ما لم يعلنه وجهه الرصين الهادئ من قبل، ويعلق رافضاً مستنكراً: لا أصدق أن المرحوم إبراهيم عقل كان يخفى عنى سراً.

وفى الاحتفال بعيد ميلاده الخامس والسبعين، يتذكر الدكتور ماهر صديقه القديم - بعد سنوات من موته - ويقول فجأة:

- رحم الله إبراهيم عقل..

ويتساءل الراوى: ما الذى دعاه إلى تذكره؟. كان أحب الأصدقاء لقلبه، ولم اشهد دمعه إلا يوم جنازته عام 1957.

وكأنما يجيب الدكتور ماهر عن تساؤل تلميذه عندما يقول:

- سلم بالإيمان تسليمه بالموت وبالحقائق الملموسة مثل شروق الشمس.

الاختلافات كثيرة بين إبراهيم عقل وماهر عبد الكريم، ولكن الصداقة تجمعها متجاوزة كل اختلاف. وبقاء ذكرى إبراهيم حية فى أعماق الدكتور ماهر تنم عن عمق الصداقة بقدر ما تكشف عن الجوانب

المضيئة فـى شخصية إبراهيم عقل؛ تلك الجوانب التى غابت عن عيون الآخرين.

وإذ تقترب رحلة الدكتور ماهر فى الحياة من نهايتها، فإنه يقدم ما يشبه الوصية فى مخاطبته للمحتفلين بعيد ميلاده: قولوا ما شئتم، لا جديد فى التشاؤم، ولكن الحياة فى صالح الإنسان، وإلا ما زاد عدده باطراد، وما زادت سيطرته على دنياه.

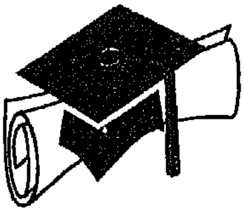

الفصل السابع

محمود درويش

ينتمى الدكتور محمود درويش إلى جيل الراوى، وبفضل الزمالة فى كلية واحدة يستطيع نجيب محفوظ أن يرصد ما يتميز به درويش من ذكاء واجتهاد خارق، وما يتمتع به من مكانة محترمة بين الزملاء والأساتذة المصريين والأجانب.

على المستوى الشخصى يبدو محمود درويش جافا منطويا على نفسه، فهو لا يعرف الصداقة لأن حدود العلاقات الإنسانية عنده تنتهى عند المزاملة والمصاحبة. وربما يكمن السر فى ذلك إلى نشأته الاجتماعية المتواضعة من ناحية ومعاناته من الحرمان والكبت الجنسى من ناحية أخرى. وليست صدفة – وإن تكن فهى دالة – أن الوجود الوحيد لمحمود درويش خارج الفصل المخصص له فى "المرايا" يأتى فى سياق الحديث عن سعاد وهبى التى تحولت إلى "ظاهرة" مثيرة للفتنة بين الطلاب، وعنها يقول درويش:

– إنها غانية لا طالبة..

ويضع نجيب محفوظ يده على مفتــاح مـهم لتفسير وفـهم شـخصية محمود درويش فى قوله: وأما سعاد وهبى فكادت تتسبب فى جنونه، ولكنه بدلا من أن يغازلها أو يحاول ذلك على الأقل راح يحمل على" تهتكها" حملة كادت تبلغ العلانية، وكان أول من ابلغ العميد عن تبرجها وعن الفتنــة التـى تثيرها فى قاعة المحاضرات.

ما المخرج من أزمة الطالب المتفوق الخجول المحروم الذى يعمل أبوه "إمام مسجد" بكل ما تعنيـه المهنـة مـن سيادة التفكـير الدينـى؟ مـا السـبيل للخروج من الصراع الحاد بين حيويته وبين حرمانه الإجبارى؟!. كان العلاج هو الزواج المبكر من ابنة العم اليتيمة الريفية الأميـة!. قـد لا تكـون الزوجـة المناسبة باعتبار ما سوف يكون، ولكنها "مفيدة" للخلاص من الكبت الجنسى والتفرغ للعلم وحده: أراحت باله، وأطلقت قواه فى التحصيل دون عـائق. ولم يعد له من اهتمام إلا العلم والتفوق.

محمود درويش إذن نموذج للأستاذ الجامعى الذى كان طالباً متفوقـاً ليس له من هدف إلا التفوق دون اهتمام يُذكـر بـالأجواء السياسـية والثقافيـة والاجتماعية التى ينشغل بها العاديون من الطلاب: لم يكن يفرق بين مصطفى النحاس وإسماعيل صدقـى، وأحيانـا كـان ينسـى اسم "الباشا" الـذى يـرأس الحكومة.

وهـو لا يقنـع بتفوقـه الدراسـى وسلبيته السياسية، فيـأبى إلا أن يعيب على زملائه اهتمامـهم بم لا يفيـد: كـان يتابعنـا أحيانـا ونحـن نـهدر بأحاديث السياسة وكأنه عاقل يستمع إلى مجانين.

ولا يكتفى الطالب المجتهد بإظهار دهشته من سلوك زملائه، فـهو

يمارس فعلاً عملياً يتوافق مع ما يؤمن بـه مـن أفكـار ترفـض الانشـغال بغـير تحصيل العلم والدروس: ولما اجتاحت موجة الإضراب الجامعة وقف حيالهـا غاضباً وعاجزا، وكان يتسلل للمكتبة فيقرأ ويقرأ وحده حتـى تغلـق أبوابـها. ويوما وثب لمنصة الخطابة عقب خطبة ثوريـة ألقاها زعيم الطلبـة. وثـب إلى المنصة، وبجرأة جنونية، دعا الطلبة إلى الانتظـام فـى العمـل والعكـوف علـى الدراسة باعتبارها هدفهم الاسمى، وهاج الطـلاب ومـا جـوا وطـالبوا بإنزالـه ولولا الاحترام الذى اكتسبه بتفوقه لاعتدوا عليه اعتداء مؤكدا.

كان منطقيا، بمقاييس الحركة الطلابيـة ومـا يسودها مـن إشـاعات ومبالغات، أن يُتهم محمود درويش بالعمالة لأجهزة الأمـن، وأن يُتـهم أبـوه بترشيحه باعتباره من ألسنة إدارة الأمن وعيونهم!.

ولأن للراوى رأيه السلبى فى محمود درويش منذ البـدء: استـثقلت ظله من أول يوم، فإنه لا ينفـى الإشـاعة التـى انطلقـت حـول علاقـة محمـود بأجهزة الأمن: وكدت أؤمـن بصدقـها عقـب تخرجنـا عندمـا أُختـير محمـود درويش عضواً فى بعثة إلى فرنسا فى فترة مـن الزمـن توقفـت البعثـات فيـها تماما.

أتكون البعثة هى مكافـأة العمالـة والخيانـة؟!. الاتـهام الموجـه إلى محمود أنه أرشد إلى زعماء الطلبة، وكم هو اتـهام متـهافت هزيـل!. أهـؤلاء الزعماء الذين يخطبون ويحرضون علانية من المجـهولين لـدى أجـهزة الأمـن بحيث تظهر الحاجة إلى أمثال محمود درويش ليرشد عنهم؟!.

بعد التخرج فى الجامعة تنقطع الصلة طويلا بـين الـراوى ومحمـود درويش، ولا تعود العلاقة إلا بعد أن يتحول المبعـوث إلى مـدرس فـى الكليـة

يفكر فى إصدار سلسلة كتب عن فلسفة التصوف.

بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية أضطر محمود إلى مغادرة باريس والحصول على الدكتوراه من سويسرا. عاد فى صورة جديدة، مليئة بالحيوية والصحة والعافية.

لا يستمر الاتصال بين الراوى وزميله القديم، وبعد أعوام يلتقيان فى صالون أستاذهما الدكتور ماهر عبد الكريم: وكانت قدمه قد رسخت فى عالم التأليف وصدر له أكثر من ثلاثة كتب عدت من المراجع الهامة فىدراسة التصوف فى العصر الحديث. وسمعت عنها الثناء تلو الثناء من أستاذنا ماهر عبد الكريم. ويومها سألته عن أحواله فقال:

- لى أربعة أبناء فى كليات الهندسة والتجارة والحقوق والآداب وبنت متزوجة من ضابط طيار..

فسألته باهتمام:

- هل تمارس التصوف؟

فأجاب ضاحكاً:

- كلا، ولكن لا مراء فى أن الإنسان لا يتخصص إلا فى مادة متغلغلة فى نفسه.

أستاذ راسخ فى تخصصه وناجح على المستوى العائلى. ليس متصوفاً، ولكن المادة التى أنفق فيها عمره تترك آثارا فى نفسه وتقوده إلى الطمأنينة والثقة والرضا والقدرة على التوافق مع الحياة.

إن العلاقة بين محمود درويش والراوى ليست متوهجة، واللقاءات القليلة بينهما بعد مرحلة الزمالة الجامعية تخضع للصدفة وحدها، وصولا إلى الانقطاع الكامل: ثم دُعى للتدريس فى إحدى الجامعات العربية فسافر خارج القطر وانقطعت عنى أخباره.

محمود درويش نموذج تقليدى لأستاذ الجامعة الغارق فى التخصص والقانع بذاته والمنغلق على نفسه، وفى حياته الشخصية أزمة لا يحيط بها الراوى ولا يتوقف عندها طويلاً؛ الزواج المبكر من ابنة العم الريفية الأمية. قد تكون مناسبة بالنسبة لطالب يقاوم الحرمان الجنسى ويواجه الكبت، ولكنها ليست لائقة بأستاذ جامعى مثقف. بعد عودة محمود من البعثة يطرح عدلى المؤذن – على الراوى – مشكلة الانسجام والتوافق بين الزوجين:

– عاد خواجا كما ترى ليجد فى انتظاره زوجة ريفية أمية.

المشكلة نفسها يفكر فيها الراوى دون أن يقوى على طرحها لأن علاقته مع محمود درويش باهتة لا تتجاوز الزمالة إلى الصداقة التى تتيح المكاشفة: وفكرت فى زوجته التى اختارتها الظروف ربة لبيت من المثقفين وهى بدائية بكل معنى الكلمة، فوددت لو أتسلل إلى أعماق ذلك الجانب من حياته، ولكنه كان يبدو متألقاً بالسعادة والنجاح.

أستاذ جامعى، و أبناء يدرسون الهندسة والتجار والقانون والآداب، أما الزوجة الأم فجاهلة بدائية!. ذلك الجانب المخبوء المستور فى حياة محمود درويش لا تتسع له " المرايا"، ولكن الظاهر يوحى بالسعادة والنجاح والرضا والإقبال على الحياة.

خاتمة

توقفنا فى الفصول السبعة السابقة أمام صورة أستاذ الجامعة كما يقدمها نجيب محفوظ فى "المرايا"، ولعل فى تنوع النماذج المقدمة ما يكشف عن حقيقة أولى ينبغى التسليم بها وهى أن الأستاذ الجامعى ليس إلا نتاجاً للواقع الذى يعيش ويعايشه.

ولأن فى الواقع من يتسمون بأخلاق مثالية سامية ومن يهبطون إلى الدرك الأسفل من الانحطاط، فإن فى أساتذة الجامعة من يستحقون التقديس ومن لا يليق بهم إلا الازدراء والتحقير.

وعند مناقشة الصورة العامة لأستاذ الجامعة كما يقدمها محفوظ، يحسن بنا أن نتوقف أمام الملامح السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لهذه الصورة.

على المستوى السياسى يتوزع أساتذة نجيب محفوظ بين غياب الانتماء السياسى الواضح المحدد" إبراهيم عقل وسرور عبد الباقى ومحمود درويش" وبين الانتماء الشكلى غير الأصيل" ماهر عبد الكريم" وصولا إلى اليسار بجبهته العريضة التى تضم الشيوعيين والناصريين والمنتمين إلى الطليعة الوفدية " عزمى شاكر وكامل رمزى" فضلاً عن الانتهازية السافرة الفاجرة التى تستعصى على التصنيف" زهير كامل". ومثل هذا التقسيم قد يكون معبراً عن المرحلة التاريخية التى تنتهى فى أوائل السبعينيات، ولكن خريطة الانتماء السياسى طالتها تطورات فى المراحل التالية، وهو ما لم تعبر عنه" المرايا" وعموم كتابات نجيب محفوظ الأخرى.

من الناحية الاقتصادية والاجتماعية تتنوع الأصول الطبقية لأساتذة نجيب من الفقر المدقع "كامل رمزى ومحمود درويش" إلى الثراء الفاحش " سرور عبد الباقى وماهر عبد الكريم" مروراً بالوسطية والاعتدال " إبراهيم عقل وزهير كامل وعزمى شاكر". هذا عن الأصول "السابقة" للأستاذية، أما ما يترتب على الوظيفة من متغيرات اقتصادية فلا يحظى باهتمام خاص من نجيب محفوظ وإن أشار إلى استثمار البعض لعلمهم وسمعتهم الجامعية كما أشار إلى العمل فى الجامعات العربية، وهى الظاهرة التى ازدادت انتشاراً منذ أوائل السبعينيات.

ويركز نجيب على الدور الثقافى لأستاذ الجامعة عبر محاور مختلفة تتمثل فى السلبية والانعزال عن المجتمع "إبراهيم عقل وسرور عبد الباقى" والانتهازية التى تستغل الثقافة ولا توظفها "زهير كامل" والانفتاح الإيجابى على المجتمع ومثقفيه" ماهر عبد الكريم" بالإضافة إلى الالتزام الأكاديمى الذى لا ينعزل تماماً ولا يبالغ فى الاندماج "عزمى شاكر - كامل رمزى - محمود درويش".

وتبدو الإشارة ضرورية إلى أن أساتذة الجامعة الذين يقدمهم نجيب محفوظ، باستثناء أستاذ الطب سرور عبد الباقى والدكتور ماهر عبد الكريم، يؤلفون كتباً يسهمون بها فى إثراء الحياة الثقافية فى مناحيها المختلفة .

ولعل أكثر ما يلفت النظر فى صورة أستاذ الجامعة كما يقدمها نجيب محفوظ، غياب الاهتمام بتفاصيل العمل الجامعى اليومى من حيث المحاضرات والأنشطة الطلابية، ذلك أن التركيز الأكبر ينصب على الملامح الإنسانية دون طبيعة العمل وخصوصيته.

المصادر والمراجع

أولا . المصادر

فى "تمهيد" الدراسة أشرنا إلى بعض أعمال نجيب محفوظ مختصرة على النحو التالى:

- قصر الشوق = قصر
- عصر الحب = عصر
- خان الخليلى = خان
- حضرة المحترم = حضرة
- ثرثرة فوق النيل= ثرثرة
- الحب تحت المطر = الحب
- الطريق = الطريق
- السراب = السراب
- الباقى من الزمن ساعة = الباقى
- بداية ونهاية = بداية
- القاهرة الجديدة = القاهرة
- المرايا = المرايا
- السكرية = السكرية

أما فى فصول الدراسة فقد اعتمدنا على رواية "المرايا" ط4، 1979.

ثانياً . المراجع

أ- الكتب

- أنور الجندى: عبد العزيز جاويش، الدار القومية للطباعة والنشر، سلسلة أعلام العرب، العدد44 ، القاهرة، 1965.
- بودلير" شارل": أزهار الشر، ترجمة محمد أمين حسونة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة آفاق الترجمة،العدد الثامن، القاهرة، 1996.

- رجاء النقاش: في حب نجيب محفوظ، دار الشروق، القاهرة،ط1، 1995.
- د. رفعت السعيد: تاريخ الحركة الشيوعية المصرية 1957–1965، شركة الأمل، القاهرة،ط1، 1986.
- عبد الرحمن صدقي: الشاعر الرجيم بودلير، دار المعارف، سلسلة اقرأ، العدد السابع،ط2، د.ت.
- فتحي رضوان: مشهورون منسيون، مؤسسة أخبار اليوم، كتاب اليوم،العدد27، القاهرة، 1970.
- مصطفى بيومي: الرؤية الوفدية في أدب نجيب محفوظ، طبعة محدودة، المنيا، مكتبة السلام، 1991.
- صورة الموظف في روايات نجيب محفوظ، طبعة محدودة، المنيا، مكتبة السلام، 1990.
- معجم أعلام نجيب محفوظ.. دراسة تحليلية، دار الأحمدي، القاهرة ط2، 1998.

ب – الدوريات

- مجلة الأقلام، بغداد ، تموز 1984.
- مجلة الهلال، القاهرة،فبراير 1970.

المحتويات

- مقدمة د. ماهر مصطفى كامل "رئيس جامعة المنيا" 5
- مقدمه د. محمد عاطف كشك "مدير مركز دراسات المستقبل" ... 7
- تمهيد 11
- الفصل الأول – إبراهيم عقل 29
- الفصل الثانى – زهير كامل 47
- الفصل الثالث – سرور عبد الباقى 61
- الفصل الرابع – عزمى شاكر 71
- الفصل الخامس – كامل رمزى 79
- الفصل السادس – ماهر عبد الكريم 87
- الفصل السابع – محمود درويش 103
- المصادر والمراجع 111

للمؤلف

أولاً – الروايات

- الصورة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة أصوات أدبية، 1995.
- لمحات من حياة المواطن م.ب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 1996.
- أحلام سرية، دار الأحمدى للطباعة والنشر، 1998.

ثانياً – النقد

- صورة الموظف فى روايات نجيب محفوظ، مكتبة السلام، المنيا،1990.
- الرؤية الوفدية فى أدب نجيب محفوظ، على نفقة المؤلف، طبعة محدودة، المنيا، 1991.
- الفكاهة عند نجيب محفوظ، الشركة المصرية العالمية للنشر– لونجمان، 1994.
- عصير الشخصية المصرية.. قراءة فى رباعيات صلاح جاهين، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1996.
- معجم أعلام نجيب محفوظ.. دراسة تحليلية، مطابع الأهرام، ط1، 1997، دار الأحمدى، ط2، 1998.
- معجم أعلام "شقة الحرية" لغازى القصيبى، مطابع الأهرام،1997.

- محمد بن عبد الله " صلعم" فى عيون الأدب العربى، دار الهدى، 1998.
- جمال عبد الناصر فى عيون الأدب العربى، دار الهدى،1998.
- القرآن الكريم فى أدب نجيب محفوظ، دار الأحمدى، 1999.
- معجم أسماء قصص يوسف الشارونى، مركز الحضارة العربية، 1999.

ثالثا – كتب للأطفال

- الحياة الجميلة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990.
- سيدة القرن العشرين، دار الأحمدى، 1999.

كتاب المستقبل

تهدف هذه السلسلة إلى :

- رفع مستوى الوعى بالقضايا والتحديات المستقبلية والنهوض بمستوى الحوار حولها لدى مختلف القوى الإجتماعية .
- استثارة الاهتمام المجتمعى الجاد بالمستقبل وقضاياه .
- الإسهام في تكوين مكتبة علمية لدراسات المستقبل من خلال إبداعات العلماء والمفكرين المصريين .

إن هدف الدراسات المستقبلية ليس فقط معرفة احتمالات واتجاهات التغير والاستعداد لها ، وإنما أيضاً التأثير فيها فى الاتجاهات المطلوبة .

مركز دراسات المستقبل

Bibliotheca Alexandrina
0395331